أثر الإسلام
في شعر لبيد بن ربيعة

الأستاذ الدكتور
شفيق عبد الرازق أبو سعدة

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين « خلق الانسان ، علمه البيان » والصلاة والسلام على سيدنا محمد القائل : « ان من البيان لسحرا ، وان من الشعر لحكمة » وعلى آله وأصحابه أجمعين . وبعد :

فما فتىء الابهام والغموض يكتنفان بعض الجوانب والقضايا فى أدبنا العربى ، نتيجة اقتفاء اللاحقين أثر السابقين دونما روية ، من منطلق الاذعان لأقوالهم ، والتسليم المطلق لأحكامهم ، حتى مع ما لا يتفق وروح العقل وجوهر الواقع ، فجرت هذه الأفكار - على ما فى بعضها من خرق - مجرى الأمثال ، وتغلغلت فى الأعماق ، وتقطعت دونها أسباب الوصول الى المعرفة الصحيحة ، أو الوقوف على الحقائق ، ففرضت نفسها على الساحة الأدبية ، بما حملت من غواشى الأوهام منذ هذه الآماد البعيدة والعصور المتطاولة .

بيد أن هذه الجوانب الأدبية المفترى عليها ما برحت تجأر بالشكوى ، وتئن بأوزارها وأثقالها ، وتصرخ من كبولها وأغلالها وما تراكم عليها ، وتهيب بالدارسين والباحثين الى الدراسة الدائبة والبحث الجاد العميق ، تطلعا الى جلاء الغموض ووضوح المعلم وقشع الضباب وزوال اللبس .

واذا كانت سهام هذه الأفكار التى لا تلائم الواقع قد نالت أدب الجاهليين فانها قد خنقت أدب عصر المخضرمين

وخاصة الشعر - خنقا،فلم تبق الا على رفاته وأشلائه ، على الرغم من أن الشعر في هذه الفترة كان الاستجابة الفنية لنزعة التعبير عند الانسان ، ومنها ما شاع فى أوساط الباحثين - من عرب ومستشرقين - أن الاسلام وقف من الشعر موقفا عدائيا وحاربه وقلب له ظهر المجن ، وأن الشعراء لذلك هجروا الشعر ، وأن الاسلام انحسر عن أثر ضئيل نحيل لا يكاد يذكر فى أشعار المخضرمين .

وأصحاب هذا الزعم المسرف يدعمونه بما يرونه من انه قد ترتب على موقف الاسلام هذا من الشعر أثران سلبيان : انتهى أولهما بالشعر الى الضعف واللين فى لفظه ونوعه وأسلوبه ؛ وانتهى به ثانيهما الى نقص فى موضوعاته ورجاله ، مما أدى الى نقصان القدر المنظوم منه .

وحاولوا تعليل هذه الظاهرة : فمن قائل : لان موضوعات الشعر فى الاسلام لم يألفها الجاهليون ، ومن قائل : لان الشعراء قد بهرهم القرآن الكريم فى أسلوبه وفى بيانه وفى القيم التى جاء بها .

وليؤكدوا على زعمهم ويدعموا أفكارهم راحوا يتلمسون الأدلة من خلال النماذج والأمثلة ، فاستدلوا على الأثر الأول بشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم « حسان ابن ثابت » وعلى الأثر الثانى بلبيد بن ربيعة .

وكان الاسلام لم يبعث الشعر - فى مكة على الأقل - من مراقده ، ولم يستنهضه من مضاجعه !!

وكان الاسلام قد أدهش الشعراء فأرتج عليهم !!

والذى لا ريب فيه أن هذه المرحلة تعد من أكثر مراحل

تاريخنا الأدبى غموضا ، ومن أقلها حظا من الدرس العميق والبحث المتأنى الدقيق ، يتوفران عليها ، ويجلوان منها الصورة الواضحة المعالم ، البينة القسمات ، فتنمحى الشبهات وينجلى الغموض .

ان وقوع هذه الفترة بين عصرين أدبيين كبيرين : « الجاهلى والأموى » حدا بالمصنفين — وعلى رأسهم ابن سلام — الى حشر شعرائها المبرزين فى اطار الجاهليين غالبا ، بينما أهملوا غير الفحول .

ولا أدل على ذلك من أنه ظهر فى هذه الفترة ما يقرب من السبعين شاعرا وشاعرة ، ومع ذلك فمن جمع شعره منهم فى دواوين ثمانية هم : لبيد ، وحسان ، والحطيئة ، وكعب بن زهير ، وسحيم ، وأبو محجن الثقفى ، وابن أبى الصلت ، والأعشى ؛ ومن المسلم أنه لم يجمع سائر شعرهم ، جريا على سنة الحياة فى الاضاعة والابقاء ، بينما ذهب مع الريح معظم شعر الآخرين ، وأضحى فى حكم المجهول .

فقد نظر المصنفون الى قصر هذه الفترة ، واعتبروها فترة انتقال من قمة جاهلية الى قمة أخرى أموية ؛ ولهذا أغفلوا دراستها وصدوا عنها ، وبالغوا فى اعراضهم وصدودهم فأدخلوا فترة صدر الاسلام فى دائرة الفترة الأموية ، ودمجوا هذه فى تلك على الرغم منهما ، مما أدى الى طمس معالم فترة المخضرمين أو صدر الاسلام .

ومن جهة أخرى فقد دأب علماء الشعر ورواته والنقاد القدامى فى وقت مبكر على التشكيك فى شعر هذه الفترة ، متهمين الكثير منه بالانتحال والحمل على أناس لم يصنعوه .

على الرغم من أن الشعر الذى حملته الينا دواوين هؤلاء

الشعراء يتدثر برداء الاسلام ويحمل طابعه وروحـــه ، وأن أصحابه كانوا من السابقين الى الاسلام العاملين له .

ومع كل هذه السلبيات والمعوقات فقد وجدت فى عصرنا الحديث دراسات حول أدب هذه الفترة ورجالاته ـ متفاوتة فى حظها من العلم والجودة ـ كانت بمثابة المشـــاعل على الطريق ، وان كانت فى معظمها حائمة مطوفة ، لا ملمـة مستغرقة ، منها : دراسة الدكتور شوقى ضيف فى كتـــابه « العصر الاسلامى » ودراسة الدكتور : السباعى بيومى فى كتابه : « تاريخ الأدب العربى فى صدر الاســـلام والعصر الأموى » ودراسة الدكتور : سليمان ربيع فى كتابه : « فى الأدب الاسلامى والأموى » ..

بيد أن هذه الدراسات قد هيـــأت أذهـــان الباحثين والدارسين ، وحفزت أقلام المهتمين بالأدب الاســـلامى ، مما كان له عظيم الأثر فى ظهور دراسات جادة وبحـــوث عميقة ، تستقصى وتلم وتمعن ، كدراســـات الدكتـــور : يحيى الجبورى فى كتابيه : « الاسلام والشعر » و « شـعر المخضرمين وأثر الاســـلام فيـــه » ودراســـة الدكتـــور : صـــلاح الدين عبد التواب فى كتابه « موقف الاســـلام من الشعر » .

وما برح حقل هذه الفترة الأدبيـــة خصـــبا ممـــرعا للدارسين والباحثين .

ولبيد بن ربيعة العامرى واحد ممن لفحتهم أشعة هذه المزاعم ، واصطلوا فى أتونها ، اذ كان وقود هذه الدعوى ـ فى أحد جانبيها ـ حيث ادعى عليه أنه هجر الشعر بسبب الاسلام ، وأنه انصرف عنـــه انصرافا تاما الى القـــرآن الكريم ، ليثبت الزاعمون الأثر السـلبى لموقف الاســـلام العدائى من الشـــعر ، ومنهم من تلطف فأنعم عليـــه ببيت

- اختلفوا فيه - ووقفوا به عند حدود شعره الجاهلى ، وعدوه لذلك شاعرا جاهليا .

ووصلهم بما يشتهون أن الرجل لم يكن من شعراء الحروب الاسلامية ، ولم يكن من حملة راية النضال الكلامية ضد المشركين ، كما كان حسان بن ثابت ، الذى رموا شعره بالضعف والوهن ، لأنهم لم يستطيعوا أن يقولوا فيه ما قالوا فى لبيد ، لذيوع شعره الاسلامى الذى ترجم عواطف المسلمين ، وحكى أمانيهم وأفكارهم .

وهذا الزعم المسرف شايعه الكثيرون من الرواة والمؤرخين للأدب ، ودار فى فلكه الكثيرون من قدامى ومحدثين ، وكأن الباحثين وجدوا راحتهم فى الاذعان والتسليم بالفكرة الشائعة - على خطئها - دون أن يجشموا أنفسهم عناء البحث عن الحق ، والتنقيب عن الحقيقة !!

وكأن جرى اللاحق فى فلك السابق أصبح تقليدا ، لدرجة أن المؤرخ الذى تلوح لناظريه الفكرة فى جوهرها الصحيح لا يحاول استقصاءها واماطة اللثام عنها ، ليسرع مهرولا الى الانضواء تحت لواء السابقين ، فهذا ابن قتيبة - مثلا - نراه يقول فى قول لبيد :

وكل امرىء يوما سيعلم سعيه
اذا كشفت عند الاله المحاصل

« هذا البيت يدل على أنه قيل فى الاسلام ، وهو شبيه يقول الله تبارك وتعالى : (وحصل ما فى الصدور) . ثم تجذب ابن قتيبة جاذبية الدائرة فيقول : أو كان لبيد قبل اسلامه يؤمن بالبعث والحساب ، ولعل البيت منحول »(١)

---

(١) الشعر والشعراء ٢٧٩/١ .

ومثله في ذلك صاحب الاستيعاب . ولهذا اضطربت بهم أفكارهم من حيث لا يحتسبون ، فذكروا للبيد أشعارا تؤكد الأحداث والمناسبات أنها قيلت بعد اسلامه ، لأن الحق أحق أن يتبع ، وليدلوا على بطلان زعمهم من حيث لا يريدون ؛ - وحيل بينهم وبين ما يشتهون - .

ولما كانت الكلمة الأخيرة في أى مادة علمية لما تقل بعد ، ولما لم تكن هذه القضية قد حسمت في دراسة مستقصية ملمة بالموضوع من كل أطرافه ، فقد آليت على نفسي أن أخوض غمارها ، وأن أدلى بدلوى في معينها ، رغبة في الظفر بالصواب ، وابراز الرشاد على لواء الحقيقة .

خاصة أن لبيد - كما يؤكد ديوانه - يعد الوحيد من بين الشعراء المخضرمين الذى عبر بالشعر الجسر الذى يقود من القديم الى الجديد ، وحافظ على مستوى شعره الاسلامى ، على الرغم من اختلاف موضوعاته ، فهو يعد نموذجا حيا لمجموعة كبيرة من شعراء البادية الذين شملهم الاسلام واستجابوا له ؛ وفي لبيد تتمثل عاطفة المؤمن الصادق ، وايمان الرجل التقى ، وأغوار النفس الفياضة بالهداية والبر والرحمة ، وقد عبر شعره الاسلامى عن الأفكار والقيم الاسلامية ، ومعانى القرآن الكريم ، مقتفيا أثر الاسلام في آدابه وتعاليمه . كما يتضح في هذه الدراسة ان شاء الله .

والواقع أن ابراز الحقائق ليس بالأمر الميسور بحال من الأحوال ، لأن الأفكار التى روج لها كثير من الذين أرخوا للأدب وشايعوها قد استقرت في الأذهان ، وأن هؤلاء الذين روجوا هذه الأفكار هم بالنسبة لنا المصدر الذى نستقى منه .

ولهذا فان جلاء الحقائق ، وتعرية هذه الأفكار ، وخلع ثياب الحقيقة عليها انما يحتاج الى عمق فكرى ونظر ثاقب وغوص فى لجج الكتب .

ومن ثم سلكت الى غايتى طريقى الاستقراء والاستنباط ، محاولا استنطاق الأحداث وأقوال المؤرخين ، متلمسا فيها ما يفيد ، واقفا عند ما فيها من اضطراب ، كاشفا عن صلة النص الشعرى بالتاريخ ، فمثلا الشعر الذى رثى فيه لبيد أخاه لأمه أربد ، أو الذى رثى فيه عامر بن الطفيل شعر اسلامى ، لأن أربد وعامر بن الطفيل هلكا بعد لقائهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد مؤامرتهما الدنيئة الخاسئة فى عام الوفود ، وكان لبيد وقتئذ مسلما ، ومثله شعره فى سلمان الباهلى .. وهكذا .

كذلك أفصحت فى دراسة فنية تحليلية عن الأثر الاسلامى فى شعر لبيد ، سواء أكان أثرا روحيا أم فكريا أم انسانيا أم فنيا ، وعن مدى ارتواء الشاعر من النبع الاسلامى الفياض ، واقتباسه من آى الذكر الحكيم .

وكان لهذا ديوان لبيد بتحقيق الدكتور : احسان عباس المصدر الرئيسى من مصادر البحث. ولا أدعى لبحثى هذا كل الجدة أو الابتكار ، فقد طرق فكرته دارسون من قبل ، غير أنهم لم يعالجوا الموضوع من جميع جوانبه ، وما ذلك إلا لأنهم تعرضوا للفكرة من خلال دراسة مواضيع أخرى ؛ فبقيت لذلك فكرته عائمة غائمة ، ودعوى المدعين قائمة ، ومن هنا جاءت حتمية دراستى هذه .

والأمل معقود فى أن أكون قد دنوت من مرافىء الصواب ، ورويت ظمأ الصادى وعلالة المشوق ، وأجليت غامضا وقررت حقيقة .

وحسبى أنى حاولت دعم الحق ، ودمغ الزعم ، وصدع الدعوى .

رغبة فى وضع الأمور فى نصابها ، واعطاء القوس باريها .

آملا أن تكون هذه الدراسة حلقة مثمرة فى سلسلة الدراسات الأدبية والعربية .

والله يوفق الخطا وهو يهدى السبيل
انه نعم المولى ونعم النصير

المدينة المنورة فى : غرة رجب ١٤٠٤ هـ
٢ من أبريل ١٩٨٤ م

د . شفيق عبد الرازق أبو سعدة

القسم الأول

لبيد بين الجاهلية والاسلام

١ ـ أسرة لبيد ، وأثرها فى تكوين شخصيته وشعره

٢ ـ نشأة لبيد ، وأحداث قومه ومكانته بينهم

٣ ـ اسلام لبيد ، وحياته فى ظلال الاسلام

أسرة لبيد وأثرها

في تكوين شخصيته وشعره

في أواسط نجد - شرقي الحجاز ، وجنوبي منازل عبس وذبيان ، وغربي منازل بني تميم - انتشر بنو عامر ابن صعصعة ، أشد عشائر هوازن بأسا وأقواها شكيمة ، وامتدت مراعيهم جنوبا حتى بني حنيفة في اليمامة ، وبني الحارث بن كعب بني نجران ، ومذحج في شمالي اليمن ، والتاريخ شاهد على أن أعلى هذه العشائر كعبا هي عشيرة بني جعفر العامرية .

وفي عشيرة بني جعفر العامرية المعروفة بالسيادة والمنعة والشرف ولد لبيد بن ربيعة (١) بن مالك بن جعفر ابن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ؛ ويكنى لبيد أبا عقيل . وآباؤه بنو أم البنين بنت عمرو بن عامر ابن ربيعة فارس الضحياء ، فقد ولدت لمالك بن جعفر خمسة من الأعلام الفرسان : عامر بن مالك المكنى بأبي براء ، والمعروف « بملاعب الأسنة » (٢) وطفيل بن مالك فارس قرزل (٣) وهو أبو عامر بن الطفيل ، وربيعة ابن مالك - أبا لبيد - وكان يسمى ربيعة أو : « ربيع المقترين » لجوده وسخائه ونجدته (٤) ، ومعاوية

---

(١) زادت بعض المصادر كالاستيعاب والاصابة والخزانة ، عامرا بين ربيعة ومالك ، وهذه الزيادة - كما يقول ابن قتيبة - : خطأ في النسب ، لأن عامر بن مالك عم لبيد لا جده . انظر الشعر والشعراء ٢/٢٧٤ .

(٢) سمي بذلك لقول اوس بن حجر فيه :

فلاعب اطراف الأسنة عامر فراح لها حظ الكتيبة اجمع

الأغاني ١٤/٩٠ .

(٣) قرزل : فرس كانت له .

(٤) انظر أمالي المرتضى ١/١٩٣ ، الأغاني ١٤/٩٠ .

ابن مالك معود الحكام (١) ، وعبيدة الوضاح أو نزال المضيق ، فهؤلاء خمسة ، وأما ما جاء فى أرجوزة لبيد :

نحن بنو أم البنين الأربعة
ونحن خير عامر بن صعصعة

فمحمول على الضرورة الشعرية ، لأن مراعاة القوافى لم تمكنه من ذكر « الخمسة » أو لعل لبيدا قال ذلك لأن أباه كان قد مات وبقى أعمامه وهم أربعة (٢) .

وأم البنين احدى المنجبات العربيات اللائى ولدن أكثر من ثلاثة بنين أشراف (٣) . ومن اللائق هنا أن أشير الى أن تاريخ منطقة نجد في القرن السادس الميلادى يعد تاريخ الأبطال أبناء المنجبات ، وأن حظ هؤلاء الأبطال من الشهرة والذيوع — فى الجزيرة بعامة — لم يكن ناتجا عن الشجاعة الفردية فحسب بل على الرأى والتجربة والخبرة أيضا ؛ ولكم قدمت الجزيرة أبطالا وصناديد وقودا للمعارك ،

---

(١) وانما سمى معود الحكام لقوله :
اعود مثلها الحكام بعدى … اذا ما الحق فى الأشياع نابا
امالى المرتضى ١٩٣/١ .

(٢) انظر : المرجع السابق ١٩٤/١ .

(٣) ومنهن فى بنى عبس ام الكملة فاطمة بنت الخرشب الانمارية ، التى ولدت : الربيع الكامل وقيس الحفاظ وعمارة الوهاب وانس الفوارس ابناء زياد العبسى ؛ وقد روى ان عبد الله بن جدعان لقيها وهى تطوف بالكعبة ، فقال لها : نشدتك الله برب هذه البنية .. اى بنيك افضل ؟ قالت : الربيع لا بل عمارة لا بل قيس لا بل انس ، ثكلتهم ان كنت ادرى ايهم افضل !! هم كالحلقة المفرغة لا يدرى اين طرفاها . انظر الأغانى ١٩/١٦ ، وامالى المرتضى ١٨٩/١ . ومنهن — فى تميم — مارية بنت عبد مناة بن عبد الله بن دارم ، ام حاجب ولقيط وعلقمة ابناء زرارة بن عدس التميمى . وفى بنى ذبيان : انجبت امراة بدر بن عمرو ، حذيفة الذى لقب « رب معد » واخوته : حملا ومالكا وربيعة والحارث .

وزجت بالكثيرين فى أتون الحرب المستعر على الدوام وقد كثر فى قوم لبيد الفرسـان الأعـلام ، يقول أبو عمـرو ابن العلاء : « جاء الاسلام واربعة أحياء قد غلبوا على الناس كثرة : شيبان بن ثعلبة ، وجشم بن بكر ، وعامر ابن صعصعة ، وحنظلة بن مالك ، فلما جاء الاسلام خمد حيان وطما حيان ، طما بنو شيبان وعامر بن صعصعة ، وخمد جشم وحنظلة » (١) وقد لفتت شجاعة فرسانهم نظر صاحب الصمصامة عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، فقال : « لو سرت بظعينة وحدى على مياه معد كلها ما خفت أن أغلب عليها ما لم يلقنى حراها أو عبداها !! فأما الحران : فعامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وأما العبدان : فأسود بنى عبس - يعنى عنترة - والسليك ابن السلكة ، وكلهم قد لقيت ، فأما عامر فسريع الطعن على الصوت ، وأما عتيبة فأول الخيل اذا اغارت وآخرها اذا آبت ، وأما عنترة فقليل الكبوة شديد الجلب ، وأما السليك فبعيد الغارة كالليث الضارى » (٢) .

كذلك لفتت كثرة فرسـان العامريين - والجعفريين خاصة - وعزتهم ومنعتهم أنظار الملوك ، ولا ريب فان من رهط لبيد عروة بن عتبة بن جعفر المعروف بعروة الرحال الذى كان يجير لطيمة (٣) النعمان بن المنذر ، وابن عمه عامر بن الطفيل من أوسع فرسان العرب ذكرا وشهرة ، وهو القائل - من منطلق احساسه بشجاعته وشجاعة قومه وكثرتهم وغلبتهم - :

وما الأرض الا قيس عيلان أهلها
فهم ساحتاها : سهلها وحزومها

---

(١) الأنباء على قبائل الرواة ص ٩٧ .

(٢) الأغانى .

(٣) لطيمة النعمان : عير عليها قطف وبز كان يرسلها النعمان الى أسواق العرب تباع له ، وليستبدل بها مما فى هذه الأسواق من أدم ومتاع .

وقد نال آفاق السموات مجدنا
لنا الصحو من آفاقها وغيومها (١)

أولئك قوم لبيد ، بنو جعفر بن كلاب الذين يقول فيهم طفيل الغنوى :

جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت
بنـا نعلنـا فى الواطئين فزلت
هم خلطونا بالنفوس وألجأوا
الى حجـرات أدفـأت وأظلت
أبوا أن يملونا ولو أن أمنـا
تلاقى الذى لاقـوه منـا لملت

وللعامريين تاريخ طويل حافل بالأحداث ، فقد خاضوا معارك كثيرة مع القبائل المجاورة لهم ، وأثرهم واضح فى أيام العرب .

وأما أم لبيد : فهى تامرة بنت زنباع العبسية ، احدى بنات جذيمة بن رواحة العبسى ، من أسرة ذات سيادة وشرف ، تلتقى فى نسبها مع زهير بن جذيمة سيد غطفان ، وقيس بن زهير ابنه سيد بنى عبس ، وهى ابنة عم الربيع بن زياد ، يلتقيان فى جد أبيه معاوية بن مخزوم ابن عوف ، وقد افتخر لبيد بأخواله الذين ولوا المشارف فى قرى العراق وما يليه من بلاد العجم ، وأعطوا فوق ما يعطى الوفود قائلا :

وشارف فى قرى الأرياف خالى
وأعطى فـوق ما يعطى الوفـود
وخالى خـذيم وأبـو زهـير
وزنباع ومـولاهم أسـيد

---

(١) الشعر والشعراء ٣٣٥/١ .

وجمع بين الفخر بعمومته وخؤولته فى قوله :

أولئك أســرتى فاجمع اليهم
فما فى شـعبتيك لهم نديد(١)

ومن ثم فانه يكون فى مقدور الباحثين أن يتلمسـوا شعاعا من ضوء ليهتدوا بسناه الى صورة يمكن أن تكون واقعية ، أو قريبة من الواقع فى تقدير نشأة الشاعر الخاصة والمتميزة التى درج فى خلالها ، وتأثرت مواهبه منذ صباه بآثارها ومعالمها ، وتفتقت طاقاته فى ظلالها ، فهو حدث قد تحرك ، ومآثر قومـه ذائعـة ، وشـهرة آبائه مطبقة ، تملأ آفاق نجـد ، وما يكون للبيـد أن يصرفه شىء ما عن الاصغـاء لما يجـرى بين الناس عنهـم ، وما يذيعونه من مناقبهم ، فما من واحد فيهم الا يشار اليه بالبنان ٠

ولبيد قد نبت فى هذا الجو الكريم ، وأثر فيه شعوره العميق بكرامة أسرته ومناقبها وأمجادها ، فنشأ لذلك — كما تؤكد المصادر — رجلا كريما سخيا جوادا فارسا شجاعا شاعرا مجيدا ، صافى النفس حلو الشمائل ، برا بقومه وفيا لهم ٠

يجد أصحاب الشعر فيه مادة غنية للحديث عن شعره ، وأصحاب المروءة معينا لا ينضب للحديث عن مروءته ، ولعله من منطلق احساسـه العميق بمكانة أسرته سـاد فن الفخر — فى جاهليته — شعره ، ولون أدبه ، لقد كان لبيد فخورا فى الجاهليـة ، ملحا فى الفخـر ، يكاد يتورط فى الاسراف والغلو ، يفخر بنفسـه وبعشـيرته ، ويدافع عن أحساب قومه ، حتى يكاد الفخـر يكون صناعـة لبيد فى الجاهلية ، الى جانب مدح كرام قومه ، ورثاء موتاهم ، وهجاء عدوهم ؛ وهذا — كما يوحى شـعره آنذاك — انما يرجع الى هـذه المسحة التى بدت عليـه من بأس البادية

---

(١) انظر ديوان لبيد ص ٣٩ وما بعدها ٠

وخشونة الصحراء ، والى هذا الفيض من فضائل هذه النفس العالية ، وتلك التربية الكريمة : لقد كان لبيد شاعر قومه ، يذود عن أحسابهم ، ويدافع عن مكانتهم ، ويناضل عن مآثرهم كلما احتاج الى النضال ، فهم عنده القروم السادة الذين نظر الدهر اليهم فابتهل ، يحدثنا الرواة (١) أن لبيدا بدأ حياته الشعرية بهذا النضال ، كان فتى غرا ، فصحب قومه فى سفارة لهم الى قصور الحيرة عند النعمان بن المنذر ، الذى كان العامريون يفدون عليه كل عام (٢) ويرون منه اقبالا عليهم ، وتلطفا لهم ، وكان على رأس وفد العامريين عم لبيد أبو البراء عامر ابن مالك ، ثم رابهم من النعمان ريب ، وأحسوا اعراضه عنهم وصدوده ، والتمسوا مصدر الداء فعرفوا أن الربيع ابن زياد العبسى - الذى كان يدعى الكامل لشطاطه (٣) وبياضه وكماله - وهو خال من أخوال لبيد ، يكيد لهم عند النعمان ويدس ، وكان الربيع نديما من ندماء النعمان ، أثيرا عنده ، يستخلصه لنفسه ، ويقدمه على من سواه .

وكان بين العبسيين - أخوال لبيد - وبنى عامر - رهط لبيد - عداوة ، أثارها أن خالد بن جعفر - أحد سادتهم وقوادهم - قتل زهير بن جذيمة أبا قيس بن زهير صاحب داحس والغبراء ، وخلص قومه وسائر بطون هوزان من ذل الاتاوات التى كان يجبيها منهم عسفا وقسرا .

---

(١) انظر : أمالى المرتضى ١/١٩٠ ، الأغانى ١٤/٩١ ، خزانة الأدب ٤/١٠ وغيرها .

(٢) غير أن البغدادى يقول فى خزانته ٤/١١ : ان العامريين اتوا النعمان فى أسارى من بنى عامر يشترونهم منه . وسواء أكانت وفادتهم توطيدا للعلائق وتوكيدا للصلات ام افتداء اسراهم ، فالمهم عندنا - هنا - موقف لبيد بين يدى النعمان ، ومؤازرته قومه ، وانتصاره لهم .

(٣) الشطاط : استواء القامة وحسنها .

وعاد بنـو عامر من عنـد الملك الى رحالهم غضـابا ، وأرقوا لهذا الذى نزل بهم ذات ليلة ، وأتمروا فيما بينهم ، ولبيد الفتى يسمع لهم ، ثم سألهم أن يبينوا له جلية الأمر ، فأعرضوا عنه ، واعتلوا عليه ، فقال : أخبرونى فلعل لكم عنـدى فرجا ، ثم أقسـم لا يحفظ لهم متاعا ولا يرعى لهم بعيرا أن لم يخبروه ، فقال له عمه : خالك (١) الربيع قد غلبنا على الملك،وصد عنا وجهه ، فقال : أنا أكفيكم الربيع ، فاذا أصبحتم فاصطحبونى الى مجلس الملك،فأرجز به رجزا ممضا مؤلما ، لا يلتفت اليه النعمان بعده أبدا ، قالوا : فانا نبلوك بشتم هذه البقلة – وتدعى التربة – فقال : هذه التربة التى لا تذكى نارا ولا تؤهل دارا ، ولا تستر جارا ، عودها ضئيل ، وفرعها ذليـل ، وخيرها قليل ، نبتها خاشـع ، وآكلها جائع ، والمقيم عليها ضائع ، أقصر البقول فرعا ، وأخبثها مرعى ، فتعسا لها وجدعا !! ألقوا بى أخا عبس ، أرده عنـكم بتعس ، وأتركه من أمـره فى لبس !! . فلما وافقوا منه فتى فصيحا صارم اللسان ، قالوا : أنت واللـه صاحبه ، واصطحبوه حين غدوا على الملك ، فلما أذن لهم دخلوا فاذا النعمان على طعامه ومعه نديمه وصفيه الربيع يطاعمه ، وقد أخذ ينتقص بنى جعفر ليصرف الملك عنهم ، فوثب لبيد ، وكان قد دهن أحد شقى رأسه ، وأرخى ازاره ، وانتعل نعـلا واحـدة – وكذلك كانت الشـعراء تفعل فى الجاهلية اذا أرادت الهجاء – فلما كان بحيث يسمعه الملك رجز قائلا :

أكـل يـوم هامتى مقذعـه
يارب هيجا هى خير من دعه
نحن بنو أم البنين الأربعـه
ونحـن خير عامر بن صعصعه

---

(١) لعل هذه الخؤولة هى التى حالت بينهم وبين اخباره بادىء ذى بدىء .

المطعمون الجفنة المدعدعه
والضاربون الهام تحت الخيضعه
مهلا أبيت اللعن لا تأكل معه
ان استه من برص ملمعه
وانه يدخل فيها اصبعه
يدخلها حتى يوارى أشجعه

• كأنه يطلب فيها شيئا ضيعه •

فلم يكد النعمان يسمع هذا الرجز ، حتى تأذى ، وكف يده عن الطعام قائلا : أف لهذا الطعام ، والتفت الى الربيع يرمقه شزرا ، وأقبل على بنى جعفر فقضى لهم حوائجهم ، وأكرم وفادتهم ؛ وقد حاول الربيع أن يبرىء نفسه مما وصمه به لبيد الفتى فلم يفلح ، اذ قال له النعمان : انك لست صانعا بانتفائك مما قال شيئا ، ولا قادرا على رد مازلت به الألسن ، فالحق بأهلك .

واضطر الى الرحيل مغاضبا للملك ، مغاضبا للبيد .

ومن هنا عرفت كفاية لبيد ونجابته ، الذى كان - كما رأينا - صاحب فخر ودفاع عن أحساب قومه منذ صباه ؛ وهذه الواقعة تثبت نبوغ لبيد وتفوقه على الندماء ، وأصالة الموهبة الفنية والمقدرة الشعرية فى أعماقه ووجدانه ، فهذا الشعر المتقن يدل على أنه صنع بدقة وبراعة حتى خفيت فيه الصنعة ، وبدا للسامعين كأنه وليد الفطرة وابن البديهة وعفو الخاطر ، ومزج الشاعر بين الهجاء المقذع والفخر والتعالى ليدل على أنه جرى على طبيعة الأشياء التى تقتضى أن يكون الشاعر المنافر بارعا فى الهجاء ، حين يقف من قومه موقف المحامى المدافع .

نشـــأة لبيـد

وأحداث قومـه ومكانته بينهم

ذاقت نفس لبيد اليتم وهو صبى مهيض الجناح قليل الحيلة ، بأب يذكر اذا جد الجد ، تعرفه ساحات الحروب ، وتبرزه ميادين الكرم ، قتله الأســـديون فى حرب بينهم وبين قومه (١) وأدرك بثأره عامر بن مالك أخوه ، فقد كان قوم لبيد أصحاب غارات وفيهم بأس وتعرض للترات .

وكان مقتل ربيعـة فى يوم كان لبنى أسـد على بنى عامر يعرف بيوم « ذى علق » (٢) يقول لبيد :

ولا مـن بيــع المقترين رزئتـــه
بذى علق فاقنى حياءك واصبرى(٣)

ويشيد بكرم أبيـه « ربيع المقترين » الذى كان أحـد مطاعيم الريح فى الجاهلية ، فيقول :

وجـدت أبى ربيعـا لليتامى
وللأضياف اذ حب الفئيد (٤)

ويقول :

وأبــى الــذى كـان الأرا
مــل فى الشتاء له قطينا(٥)

---

(١) يقال : قتله منقذ بن طريف الأسدى ، او الصامت بن الافقم - الشعر والشعراء ٢٧٤/١ .
(٢) ذو علق : جبل بديار بنى أسد .
(٣) ديوان لبيد ص ٤٨ .
(٤) الديوان ص ٤٠ ـ الفئيد : هو الخبز أو الشواء أو النار -
(٥) الديوان ص ٣٢٢ .

وتكفل بأمره أعمامه الذين بروا به وأحنوا عليه ، وكانوا له خير الآباء ، كما يؤكد قوله :

لعبت على أكتافهم وحجورهم
وليدا وسمونى لبيدا وعاصما (١)

ونشأة لبيد هذه تتفق ونشأة أمه ، فقد نشأت هى الاخرى يتيمة فى حجر الربيع بن زياد العبسى ، وتزوجت قبل أبيه - قيس بن جزء بن خالد بن جعفر ، فأنجبت له أربد ، ثم تزوجت - من بعده - ربيعة فأنجبت له لبيدا ؛ ومن ثم كان أربد أسن من لبيد ، وكان يعطف عليه ويحنو باعتباره الأصغر ، وقد أثرت معاملة أربد الطيبة فى نفس لبيد تأثيرا كبيرا ، اذ أحبه حبا جما ، وأعجب به وبشجاعته وبكل ما يأتى من أعمال ، وامعان فى الاقبال على اللذائذ ، وشدة على الأعداء ، ولين مع الأقرباء ، وفيه يقول :

ممقر مر على أعدائه
وعلى الأذنين حلو كالعسل (٢)

وقد تتابعت أحزان لبيد بموت أخيه أربد ، الذى كان به صبا ، فرثاه بقصائد تعد من عيون هذا الفن .

وحرى بنا قبل الاسترسال فى نشأته أن نقف مليا عند مولده ، نبين - قد رالطاقة - وجه الصواب فيه ، حيث اختلف المؤرخون حوله اختلافا كثيرا .

ليس بين أيدينا ما يثبت عن يقين العام الذى ولد فيه لبيد ، فكل ما وقعنا عليه فى هذا الجانب يقوم على الحدس وينهض على التخمين ، والاختلاف واضح بين الروايات ،

---

(١) الديوان ص ٢٨٧ .
(٢) الديوان ص ١٩٧ .

ولذلك فسوف أعتمد على التقصى والاستنباط معا فى محاولة للوصول الى ما ننشد .

يذكر الرواة والباحثون أن لبيدا كان يوم جبلة (١) الذى كان لبنى عامر وحلفائهم على بنى تميم وحلفائهم ، والذى ولد فيه عامر بن الطفيل ، كان لبيد فى هذا اليوم ابن تسع سنين ، وكان يقف الى جانب عمه عامر بن مالك أبى براء ، الذى كان يقول له يومئـذ : « اليوم يتمت من أبيك ان قتل أعمامك » ، وهذا يثبت لنا أن لبيدا كان فى هذا الوقت فى كفالة أعمامه الذين كانوا له فى مقام أبيه ، الذى كان قد قتل - كما سبق - فى يوم « ذى علق » .

ومن المرجح لدى أن يوم جبلة كان فى سنة احدى أو ثنتين وخمسين وخمسمائة للميلاد .. نستخلص ذلك مما ذكره المؤرخون : أن عامر بن الطفيل - الذى ولد فى هذا اليوم - وفد على النبى صلى الله عليه وسلم عام الوفود - العام التاسع للهجرة - وهو ابن نيف وثمانين (٢) والنيف هنا - فى رأيى - لا يتعدى العام أو العامين ، لأنه لو كان يتعدى - هنا - الى أكثر من عامين ، لكان الأجدر بهؤلاء المؤرخين والرواة أن يستعملوا لفظة « البضع » ، ولو حسبنا هذه المدة الزمنية لاتضحت الحقيقة التى سقناها ؛ والتى توصلنا الى أن لبيدا الذى يكبر ابن الطفيل بتسع سنين يكون قد ولد فى سنة ثنتين أو ثلاث وأربعين وخمسمائة ، واذا كان لبيد يقول فى احدى قصائده :

وغنيت سبتا قبل مجرى داحس
لو كان للنفس اللجــوح خلود

---

(١) انظر ايام العرب ، ط الحلبى ، ص ٣٤٩ .

(٢) انظر كتاب المعمرين من العرب ص ٥٢ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٤١٩/٤ .

ويروى : « وعمرت حرسا قبل » (١) .

والمعتقد أن مجرى داحس - داحس والغبراء - كان فى أواسط القرن السادس أى حوالى خمسين وخمسمائة ، أو قبيل ذلك ، وأنه مقارب ليوم جبلة فى تاريخه (٢) ، وهذا لا يعكر صفو ما توصلنا اليه ، لأن مدلول « السبت أو الحرس » عدديا غامض ، ولم يقدر بالتحديد كمه الزمنى ، ومن هنا يكون « السبت أو الحرس » القطعة من العمر - قلت هذه القطعة أو كثرت - وكأن لبيدا اذن يؤكد على أنه ولد قبل مجرى داحس - ولو بعامين أو ثلاثة كما استخلصنا - .

وقد نشأ لبيد والقبيلة بكل مقوماتها تجرى فى دمه ، اذ كان يشعر شعورا عميقا بكرامة قبيلته وعلو كعبها ، وشارك فى حروبها ، وافتخر بانتصاراتها وهجا أعداءها .

لقد نشأ بين ذوائب العرب فى العريض الباذخ من العز والعدد والشرف ، وقد اتصلت تلك الشمائل العالية بنفسه ، حتى قال عنه الرواة : انه كان من الشعراء الأشراف والفرسان الشجعان والأجواد الأسخياء .

ويتراءى لى أن جلبة صوت شعره فى عالم القريض فى الجاهلية كانت أشد من جلبة وقع سيفه فى ساحة الوغى .

وقد ورث لبيد من أبيه حلة الجود وسجية الكرم ، فنذر على نفسه فى الجاهلية ألا تهب الصبا الا نحر واطعم الناس (٣) ، وقد وفى بنذره فى الجاهلية ، وحرص على

(١) الديوان ص ٣٥ .
(٢) انظر مقدمة الديوان ص ١٨ .
(٣) الأغانى ١٤/٩٤ .

الوفاء به فى الاسلام ، وهذا الكرم الفطرى أكد عليه قول لبيد فى معلقته (١) :

وجزور أيسار دعوت لحتفهـا
بمغالق متشـابه اجسـامها
أدعو بهن لغاقـر أو مطفـل
بذلت لجيران الجميع لحامها
فالضيف والجار الجنيب كأنما
هبطا تبـالة مخصبا أهضامها
تأوى الى الأطنـاب كل رذية
مثل البليـة قالص أهدامهـا
ويكللون اذا الريـاح تناوحت
خلجا تمد شـوارعا أيتامهـا

ولم لا يكون كذلك ؟! وهو - كما يتحدث عن نفسه ومعشره : -

من معشر سـنت لهم آباؤهم
ولكل قـوم سـنة وامامهـا

وقد ازداد شعور العامريين بالقوة بعد يوم جبـلة ، الذى انتصروا فيـه انتصـارا سـاحقا على الذبيانيين وبنى تميم ، أخرجهـم عن طورهم ، فتصـوروا أن فى مقـدورهم أن يقضـوا القضـاء المبرم على بنى حنظـلة التميميين ، لكن جموعهم الكثيفة لم تغن عنهم شيئا أمام قوم يدافعون عن أنفسهم فى سـبيل البقـاء ، فانهـزم العامريون فى يوم « ذى نجب »(٢) وعلى رأسهم الطفيل - صاحب قرزل - وقتل عبيدة بن مالك - عم لبيد - وعمرو

---

(١) الديوان ص ٣١٨ .

(٢) كان بعد عام من يوم جبلة .. انظر ايام العرب فى الجاهلية ص ٣٦٥ .

ابن الاحوص - رئيس بنى عامر آنئذ - ، وعاد بنو عامر الى مواطنهم يلعقون مرارة الهزيمة ، وحزن الاحوص على ابنه عمرو حزنا شديدا أدى الى وفاته .

وقد مهدت هذه الأحداث لظهور زعيم جديد يقـــود معارك بنى عامر ، وذلك هو : عامـر بن مالك أبو براء - عم لبيد - فقد بدأ نجمه فى التألق منذ يوم - ذى نجب - اذ استطاع أن ينقذ البقية الباقية من العامريين .

ثم حدث انقسام فى بنى عامر ، بين حيين من أحيائها هما : بنو جعفـر وبنو أبى بكر بن كلاب ، لأمـــور تتعلق بالجوار (١) فقد قتل منيع الجعفرى رجلا من الكلابيين ، وفى الوقت ذاته قتلت قبيلة غنى ابنا لعروة بن جعفـــر ، وأراد الكلابيون أن يبوء أحد القتيلين بالآخر - اذ كانت قبيـــلة غنى فى جـــوار بنى أبى بكر بن كلاب - فأبى بنو جعفر اقتراحهم ، ورفضوا رغبتهم ، والتحم الفريقان فى حرب ضروس خذل فيها بنو جعفر ، وقضى عليهـم جواب البكرى - رئيس بنى أبى بكر - بالنفى عن ديار بنى عامر ، واضطرت بنو جعفر آسفة الى النزول عـلى حكم جواب ، وخرجوا متوجهين الى اليمن ، ونزلوا بلاد الحارث بن كعب ، وحالفوهم ، وأقاموا بين ظهرانيهـم حولا كريتا . وأدى تزوح الجعفريين عن قومهم الى طمع القبائل فيهم ، فقد اجتمعت أسد وغطفان وضبة وعدى ، وهزموا العامريين فى يوم « النسار » (٢) الذى غاب فيه أبطال بنى جعفر أمثال : ملاعب الأســـنة وفارس قرزل وسلمى بن مالك وغيرهم .

وأراد بنو الحارث بن كعب أن يتقـــووا بالجعفريين

---

(١) انظر حديث ابن ضبا فى المرجع السابق ص ٣٠٠ ومابعدها .
(٢) ايام العرب فى الجاهلية ص ٣٧٨ .

ويصبحوا معا أعز العرب ، وذلك باشتباك الأرحام بينهما، وتزوجهم من بنى جعفر عشرين امرأة ، وتزوج بنى جعفر منهم عشرين إمرأة ، وأقرت بنو جعفر اقتراح بنى الحارث الا أبو براء زعيمهم ، الذى صرخ فى قومه « لا يبقين أحـد له فرس الا ركبه ، ولا سلاح الا لبسه ، وأخذ رمحه ، ففعلوا، ثم نادى أن احتملوا بأثقالكم ونسـائكم ، وسـيروا حتى تقطعوا ثنية النهر – وهى ثنية باليمن – فاذا قطعتمـوها فانزلوا ، ففعلوا ، ووقف عليهم عامر حتى جاوز الثنية ، ثم أتاهم فقال : هل أخذت لكم دية ؟ أو أبتكم على خسف قط ؟ قالوا : لا . قـال : والله لتطيعننى أو لأتكئن عـلى سيفى حتى يخرج من ظهـرى . وقال : أتدرون مـا أراد القوم ؟ أرادوا أن يرتبطوكم فتكونوا فيهم أذنابا ويستعينوا بكم على العرب ، وأنتم سادة هوازن ورؤساؤهم » (١) .

ونصحهم بالعودة الى ديارهم ومصـالحة ذويهـم . وكاد هذا الأمر يؤدى الى انقسام بين أبناء العشيرة ، لولا تصدى لبيد بن ربيعة بحزم للموقف ، فقد استطاع بخلابة لسانه ومكانته فى قومه أن يحول بينهم وبين الشقاق ، وأن يقرهم على رأى عمه عامر . وموطن لبيد فى هذا اليوم من المواطن التى أشاد بها وافتخر ، ومن ذلك قوله فى قصيدته التى مطلعها :

من كان منى جاهلا أو مغمرا
فما كان بدعا من بلائى عامر
ويوم منعت الحى أن يتفرقوا
بنجران ، فقرى ذلك اليوم فاقر(٢)

ولبيـد كان كثير الدفـاع عن قومـه – الذين يحبهم

---

(١) النقائض لأبن عبيدة نشر بيفان ص ٥٣٤ .
(٢) الديوان ص ٢١٥ .

ويكرمونه - بسيفه وبلائه تارة :

وحميت قومى اذ دعتنى عامر
وتقدمت يوم الغبيط وفود (١)

أو بذرابة لسانه وعذب بيانه ومكانته بين قومه وبين الناس تارة أخرى :

ومقام ضيق فرجتـــه ...
بمقــامى ولســـانى وجـــدل
لو يقـــوم الفيـــل أو فيـــاله
زل عن مثـل مقامى وزحل (٢)
حتى حق له أن يشيد بذلك قائلا :
لى النصر منكم والولاء عليكم
وما كنت فقعا أنبتته القراقر (٣)

ولقد كان لبيد يتحرق شوقا وحنينا الى وطنــه ، عـلى نحو ما أفصح فى ميميته :

بكتنـــا أرضـــنا لما ظعنـــا
وحيتنـــا ســـفيرة والغيام (٤)

وعاد بنو جعفر الى مواطنهـم ، وعـــاد بعـــودتهم للعامريين نفوذهم وجاههم ·

وتوثقت الصلة بينهم وبين النعمان بن المنذر ، حتى عهد بحماية تجارته والمرور بها على جميع العـــرب الى

---

(١) الديوان ص ٣٧ ·
(٢) الديوان ص ١٩٣ ·
(٣) الديوان ص ٢١٩ ·
(٤) الديوان ص ٢٩٣ ·

عروة الرحال العامرى ، غير أن البراض الكنانى - الخامل الذكر - يتعدى على التجارة ويقتل عروة ، لتثور الحرب الضروس بين العامريين - أو هوازن - بقيادة أبى براء وبين قريش وكنانة ، والمعروفة بحروب الفجار ، لوقوعها فى الأشهر الحرم ، وقد شهد النبى صلى الله عليه وسلم بعض هذه الحروب - وهو غلام - وآخر حروب الفجار سنة ست وتسعين وخمسمائة ، وانتهت بالصلح بين المتحاربين. وانتهت بانتهائها زعامة أبى براء الميدانية ، ووقفت على أعمال السلم ، ليحل محله الفتى الناشىء عامر بن الطفيل، الذى استطاع أن يثبت لنفسه فى حروب قومه مكانة وفروسية ، والذى قامت سياسته على عاملى الطموح والغرور .

بيد أن السيادة العامرية كانت مثار جدل وخلاف بين ابن الطفيل وعلقمة بن علاثة ، حيث عظم الشر بينهما ، وامتد نزاعهما الى المنافرة ، والرواة يقولون : انهما تحاكما الى أبى سفيان بن حرب الأموى فأبى أن يحكم بينهما ، ثم تحاكما الى ابن هشام المخزومى فأبى أن يحكم بينهما ، فلما استيأسا من حكم قريش تحاكما الى عبس ، وانتهى أمرهما الى هرم بن قطبة الفزارى ، وفشت قصتهما ، فتحدثت بها العرب فى الجاهلية ، وتحدثت بها فى الاسلام دهرا طويلا ، وسأل عنها عمر بن الخطاب رضى الله عنه هرما ، فأبى أن ينبئه بسرها ، فحمد عمر منه أمانته ووفاءه وكتمانه . وانتهى التحكيم بينهما بعدم تفضيل أحدهما على الآخر .

وكان الحطيئة والسندرى قد نشطا مع علقمة ابن علاثة ، ولبيد والأعشى مع عامر بن الطفيل ، ولبيد كان صادقا يدافع عن عشيرته الأقربين ، والحطيئة كان مأجورا يبيع شعره لسيده علقمة ، الذى كان برا به فى الجاهلية ، وأراد أن يكون برا به فى الاسلام ، فحال الموت بينه وبين ما أراد ، وفى ذلك يقول الحطيئة :

وما كان بينى لو لقيتك سـالما
وبين الغنى الا ليال قلائل (١)

ويبدو أن موقف لبيد فى هذه الخصومة كان محرجا ، لانه يفضل عامرا وفى ذات الوقت لا يستطيع أن ينتقص من علقمة ، وهو على مذهب أبى براء ، ويتضح هذا القلق والحرج فى قوله :

وأنبش من تحت القبـور أبوة
كراما همو شدوا على التمائما
لعبت على أكتافهـم وحجـورهم
وليدا ،وسموني مفيدا وعاصما(٢)

فى هذه الأثناء وفى مطلع القرن السابع الميلادى كانت الاحداث فى الجزيرة العربية تتجه وجهة جديدة ، فقد مات النعمان بن المنذر ، وظهر فى العرب سيد جديد يدعو الى دين التوحيد — هو محمد بن عبد اللـه صلى اللـه عليـه وسلم — وبنو عامر فى غفلة من هذا الأمر ، فلم يتنبهوا الا وسادة مكة قد اتبعوا هذا الدين الجديد وصاحبه .

وفيما كان بنو عامر آخـذين فى ضروب من حيـاتهم الجاهليـة زار أبو براء — الذى كانت زعامتـه قد أخذت تتأرجح — يثرب سـنة خمس وعشرين وستمائة بعـد أحد بقليل ، يذكر ابن هشـام : أن أبا براء قـدم على رسـول الله صلى الله عليـه وسلم المدينة ، فعرض عليه الرسـول الاسلام ودعاه اليه ، فلم يسلم ولم يبعد ، وقال : يا محمد ، لو بعثت رجالا من أصحابك الى أهـل نجـد فدعوهم الى أمـرك ، رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال الرسـول : انى

(١) انظر حديث الأربعاء ص ١/٤٥ .
(٢) الديوان ص ٢٨٧ .

أخشى عليهم أهل نجد ، قال أبو براء : أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا الناس الى أمرك . فأرسل الرسول المنذر ابن عمرو فى سبعين رجلا من قراء المسلمين ، ونزلوا عند بئر معونة - وهى بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم - وعلم بخبرهم عامر بن الطفيل ، فاستخف بجوار أبى براء ، واستصرخ عليهم بنى عامر ، فأبوا قائلين : لن نخفر أبا براء ، فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم ، فأحاطوا بهم فى رحالهم ، وغدروا بهم وقتلوهم من عند آخرهم ، الا كعب بن زيد نجا حين ارتث من بين القتلى .

وقد تألم الرسول لمصاب أصحابه ؛ وشق على أبى براء اخفار عامر اياه ، ودب التنازع بين العامريين ، ووثب ابن لأبى براء على عامر فطعنه بالرمح فى فخذه فأشواه ، ولعل ابن أبى براء هذا هو ربيعة بن أبى براء الذى قال فيه حسان بن ثابت وهو يحرض بنى ابى براء على عامر ابن الطفيل :

بنى أم البنين ألم يرعكم
وأنتم من ذوائب أهل نجد ؟
تهكم عامر بأبى براء
ليخفره وما خطأ كعمد ؟
الا أبلغ ربيعة ذا المساعى
فما أحدثت فى الحدثان بعدى؟
أبوك أبو الحروب أبو براء
وخالك ماجد حكم بن سعد (١)

غير أن ابن اسحاق يقول : ان الذى حمل على عامر ابن الطفيل وطعنه بالرمح هو ربيعة بن مالك (٢) ،

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ١٣٧/٣ .
(٢) المرجع السابق ١٣٧/٣ .

والخطأ فيه بين واضح ، لأن ربيعة بن مالك هو والد لبيد ، وكان قد قتل قبل هذا اليوم بأكثر من ثمانين عاما ٠

والحقـائق تؤكد أن لبيدا سـاءه صنيع ابن الطفيل ، وأنه وقف الى جانب عمه يشد من أزره ، من منطلق حبـه لعمه ، وايثاره العـدالة فى الحكم واحترام الجوار ؛ وقد اصطفاه أبو براء ليكون سفيرا الى المدينة بعد بئر معونة يعتذر عن جرم ابن الطفيل ، ويطب له من دبيلة خرجت فى جوفه ، ويبعث معه هدية ، رفضها الرسول عليه الصلاة والسلام ٠

* * *

اسلام لبيد وحياته فى ظلال الاسلام

(١)

وفد لبيد الى المدينــة بعـد يوم بئر معونة ، والتقى بالرسول صلى الله عليه وسلم ، ورأى عن كثب أثر هــذا الدين الجـديد فى نفوس معتنقيه ووحــدة صفهم وجمع كلمتهم والتفافهم حول قائدهم ، رأى صورة راقته تختلف كل الاختلاف عما عليه قومه من تفكك فى الرأى واضطراب فى الأمور ، فهزه ما رأى ، ومس شغاف قلبــه ما أبصر ، فاطمأن لهذا الدين الاسلامى كل الاطمئنان فأسلم ، وأقام فى المدينة بين ظهرانى المسلمين يحفظ من القرآن ما تسنى له حفظه أثناء اقامته ، وكتب سورة الرحمن ، ثم عاد الى قومه بدواء عمه ، وبذكر البعث والحساب والجنة والنار ، مما عرضه لذم سراقة بن عوف بن الأحوص فى قوله :

وجئت بدين الصابئين تشوبه
بألواح نجد بعد عهدك من عهد
وان لنــا دارا زعمت ومرجعــا
وثم اياب القــارظين وذى البرد (١)

بيد أن هــذا الاستنتاج تعارضــه رواية تقول : انه لما أصاب عامر بن الطفيل ما أصابه بعث بنو عامر لبيــدا ، وقالوا له : أقدم على هذا الرجل ـ محمد ـ واعلم لنا علمه فقدم عليــه فأســلم ، وجاء قومــه بذكر البعث والجنـــة والنــار (٢) .

ويذكر المدائنى : أن لبيدا قدم على رســول الله صلى

---

(١) كان عمر يقول :« وايم الله اياب القارظين وذى البرد » ، انظر الأغانى ١٣٢/١٥ .

(٢) الأغانى ٩٠/١٤ ، ١٣٢/١٥ .

اللــه عليه وسلم فى وفد بنى كلاب بعـد وفاة أخيـه أربد وعامر بن الطفيل فأسلم وحسن اسلامه .

وهــذه الرواية كما ترى تجعل اســلام لبيد فى عام الوفود ، لكن مما تجدر الاشارة اليه أن الروايات جميعهـا لم تشر - من قريب أو بعيد - الى أن لبيدا كان فى وفد بنى عامر الذى كان على رأسه عامر بن الطفيل وأربد بن قيس.

ثم ان اعتراض هذه الرواية لا يفسد ما توصلنا اليـه من أن لبيدا كان قد أسلم فى وفادته الى الرسول بالمدينة بعد بئر معونة .

اذ ليس هنالك ما يمنع أن تكون وفادته فى وفد بنى كلاب وفادة ثانية(١)،الغرض منها اسلام الوفد ، أما اسلامه فكان منـذ وفادته الأولى ، وهـــذا ما نستشـفه من قول ابن قتيبة : « وأدرك لبيد الاسلام ، وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وفد بنى كلاب فأسـلموا ورجعوا الى بلادهم » (٢)

ونستشـفه مما ذكـره الطبرى : « أن وفـد بنى كلاب وفيهم لبيد وصلوا المدينة سنة تسع ، ونزلوا دار رملة بنت الحارث ، فسلموا عليه سلام الاســلام ، ورجعوا الى بلاد قومهم » (٣) .

فابن قتيبـة والطبرى يؤكدان اســلام الوفد الكلابى

---

(١) بل هى وفادة ثالثة لأن لبيدا كان قد وفد الى الرسول بعـد وفادته الأولى التى أسلم فيها ، مع وفد قيس ، حين اشتد الجدب على مضر وفشت المجاعة ، وانشـده لبيد : « اتيناك يا خير البرية كلها » الاصابة ٥/٦٧٨ .

(٢) الشعر والشعراء ١/٢٧٥ .

(٣) تاريخ الطبرى ٣٢/١٢ .

الذى قدم فى صحبة لبيد الذى كان قد أسلم من قبل . وأن لبيدا قد أعلن اسلامه فى هذه الوفادة .

ويرشح هذا الرأى ويعضده ما ذكره ابن هشام وابن عبد البر : أن لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر وعلقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر كانا من المؤلفة قلوبهم ، وأن الرسول عليه السلام قد أعطاهما من غنائم حنين (١) .

وحنين كانت فى سنة ثمان للهجرة ، ولبيد وقتها كان مسلما ، ولعل الرسول صلى الله عليه وسلم أراد أن يعد لبيدا من المؤلفة قلوبهم لأنه أسلم وقومه ما يزالون على جاهليتهم .

ويغلب على ظنى أن قومه كان يعلمون ذلك عنه ، وأنهم من منطلق هذا العلم اختاروه - بعد حادثة ابن الطفيل - سفيرا عنهم الى المدينة ، لقرب الصلة - فى زعمهم - بين ما يذيعه فيهم لبيد وما يحمله الدين الجديد !!

ولعل ما أذاعه لبيد فى قومه كان الدافع الى تشوقهم للاسلام ، وحضهم عامر بن الطفيل عليه ليسلموا معه بقولهم له:ان الناس قد أسلموا فأسلم،فقال:والله لقد كنت آليت ألا أنتهى حتى تتبع العرب عقبى ، أفأتبع أنا عقب هذا الفتى من قريش؟!وفي العام التاسع - عام الوفود - وفد الوفد العامرى يترأسه عامر بن الطفيل وأربد بن قيس وحيان ابن سلمى ، وكان وفدا شاذا بين الوفود ، فقد جاء يساوم ويتحدى ، فلم ير ابن الطفيل فى رسول الله الا ما يراه فى أى زعيم قبلى ، ومن منطلق حرصه على سيادته التى كرس

---

(١) سيرة ابن هشام ٣٦٩/٤ ، الاستيعاب ١٣٣٧/٣ .

حياته لها قال للرسول عندما دعاه الى الاسلام : على أن يكون الأمر لى سنة ولك سنة ، أو يكون لى الوبر ولك المدر ، وكان قد تآمر مع أربد على الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا جعل يقاول الرسول ويشغله رجاء أن يعلوه أربد بسيفه ، فلما لم يرضه رسول الله ، قال : والله لأملأنها عليك خيلا جردا ورجالا مردا ولأربطن بكل نخلة فرسا ، وعاد ولم يسلم . وقوله هذا يدلنا على كثرة فرسان قبيلته ، هذه الكثرة التى تتجلى فى قول الرسول مجيبا عائشة حين سألته : من هذا؟.هذا عامر بن الطفيل ، والذى نفسى بيده لو أسلم فاسلمت بنو عامر معه لزاحموا قريشا على منابرهم ، ثم دعا : اللهم اهد بنى عامر واشغل عنى عامر بن الطفيل بما شئت وكيف شئت وأنى شئت .

فلما خرجوا من عند الرسول قال عامر لأربد : ويلك يا أربد أين ما كنت أمرتك به ؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوف عندى على نفسى منك ، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبدا ، قال أربد : لا تعجل على ، والله ما هممت بالذى أمرتنى به من أمره الا دخلت بينى وبين الرجل ، حتى ما أرى غيرك ، أفأضربك بالسيف ؟

وكأن بنى عامر على هذا كانوا يميلون الى الاسلام ، ولم يكن يصدهم الا عناد عامر بن الطفيل .

وقد أدركته دعوة الرسول عليه السلام ، فأخذت عامرا غدة مثل غدة البكر ، عقب منقلبه من المدينة فى بيت سلولية،وأما أربد فما كاد يعود الى قومه الا أصابته صاعقة فأحرقته (١) .

---

(١) انظر : سيرة ابن هشام ٤٢٩/٤ ، الأغانى ١٣٢/١٥ ، الشعر والشعراء ٢٧٨/١ . ويقول لبيد فى وفاة اربد :

اخشى على اربد الحتوف ولا ارهب نوء السماك والأسد
فجعنى الرعد والصواعق يا فارس يوم الكريهة النجد

نستطيع أن نؤكد اذن على أن لبيدا قد أسلم فى العام الرابع للهجرة بعد بئر معونة وأن الرسول شاء له أن يكون من المؤلفة قلوبهم ، لأن قومه لم يكونوا قد أسلموا بعد . وأن لبيدا أعلن اسلامه فى العام التاسع للهجرة مع وفد بنى كلاب ، لا وفد بنى عامر .

ويكون لبيد - على هذا - قد أسلم وهو ابن ثلاث أو أربع وثمانين سنة ، وأعلن اسلامه وهو ابن تسع وثمانين أو تسعين سنة .

ومن ثم نتفق مع جل الرواة الذين يؤكدون أنه أسلم فى التسعين من عمره ، وان كنت أعتبر هذه المدة الزمنية ميقاتا لاعلانه الاسلام .

(٢)

عاد لبيد الى قبيلته ناسكا مسلما ، الى أن كان عهد عمر بن الخطاب ، وكان لبيد قد أوغل فى الحياة الاسلامية ، وألم بجوانبها ، فلما خط عمر الكوفة - والمعروف أن الكوفة خططت فى سنة سبع عشرة للهجرة - (١) لم يطل به المقام بين ظهرانى قومه ، ونزح هو وبنوه الى الكوفة ، وأقام بها ، وقيد اسمه فى ديوان العطاء ، وقد نقل لبيد الى الكوفة كرمه القديم ، والأخبار التى تروى عن حياته فى الكوفة ، تصوره كلها رجلا كريم النفس ، صافى الطبع ، حلو الشمائل ، لم يستبق من عاداته فى الجاهلية الا ما يقره الاسلام ، فهو كريم جواد ، لأن الاسلام يحبذ الكرم ويدعو الى الجود ، وهو معرض عن الفخر ، الذى كاد يكون صناعته فى الجاهلية ، بقومه لأن الاسلام يدعو الى صلة الرحم ، فاذا سمع من يعيبهم رده ردا حازما رفيقا ، ثم استغفر الله من الفخر ؛ ولهذا وصفه ابن سلام

---

(١) تاريخ الطبرى ١٥٢/٣ .

بقوله : « وكان مسلما رجل صدق » (١) . فأما كرمه فقد تحدث به الولاة على المنابر ، اذ ظل وفيا بنذره الذى قطعه على نفسه فى الجاهلية ، وهو ألا تهب الصبا الا أطعم الناس ، وحرص على الوفاء به فى الاسلام ، على الرغم من دخله المحدود ، يروى الرواة : أن المغيرة بن شعبة كان اذا هبت الصبا خطب الناس ، فقال لهم : أعينوا أبا عقيل على مروءته (٢) ، ويروون : أن الصبا هبت يوما — ولبيد مملق — والوليد بن عقبة على الكوفة ، فصعد الوليد المنبر فخطب الناس ، فقال : ان أخاكم لبيد بن ربيعة قد نذر فى الجاهلية ألا تهب صبا الا أطعم ، وهذا يوم من أيامه فأعينوه ، وأنا أول من فعل ، ثم نزل عن المنبر ، فبعث اليه بمائة بكرة ، وكتب اليه بأبيات قالها :

أرى الجزار يشحذ شفرتيه
اذا هبت رياح أبى عقيل
أشم الأنف أصيد عامرى
طويل الباع كالسيف الصقيل
وفى ابن الجعفرى بحلفتيه
على العلات والمال القليل
بنحر الكوم اذ سحبت عليه
ذيول صبا تجاذب بالأصيل

فقال لبيد لابنته : أجيبيه فلعمرى لقد عشت برهة وما أعيا بجواب شاعر !! فقالت :

اذا هبت رياح أبى عقيل
دعونا عند هبتها الوليدا

---

(١) طبقات الشعراء ص ٤٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٨ .

أشــــم الأنف أروع عبشــميا
أعــان على مــروءته لبيــدا
بأمثــال الهضــاب كأن ركبــا
عليهــا من بنى حام قعـــودا
أبا وهب جزاك اللـــــه خيرا
نحــرناها فأطعمنـــا الثريدا
فعــد ان الــكريم لــه معـــاد
وظنى بابن أروى أن يعـــودا

فقال لها أبوهـا : أحسنت ، لولا انك اســتطعمته . فقالت : ان الملوك لا يستحيا من مسألتهم ، فقال : وأنت فى هذه أشعر (١) .

وأما عن اعراضـه عن الفخر فقد تبين لنـا من كثرة قراءته القرآن الكريم ، وقضائه جل وقته فى المسجد ، فاذا ما أثاره أحـد الى ذكر شىء من الفخر القـديم ذكره ، ثم استغفر اللـــه كثيرا ، ذكر صاحب الأغانى : (أن الوليـد ابن عقبة سأل لبيدا عما كان بينـه وبين الربيع بن زياد بن النعمان ، فقال له لبيد : هذا كان من أمر الجاهلية ، وقد جاء الله بالاسلام ، فقال له : عزمت عليك ــ وكانوا يرون لعزمة الأمير حقا ــ فجعل يحدثهم ، فحسده رجـل من غنى ، فقال : ما علمنا بهذا ، قال : أجل يا ابن أخى لم يدرك أبوك مثـل ذلك ، وكان أبوك ممن لم يشـهد تلك المشاهد فيحدثك) (٢) ، كما أخبر : أنه لم يسمع من لبيد فخره فى الاسلام غير يوم واحد ، فانه كان فى رحبة غنى مستلقيا على ظهره ، قد سجى نفسه بثوبه ، اذ أقبل عليه شاب من غنى ، فقال : قبح الله طفيلا حيث يقول :

---

(١) الأغانى ٩٧/١٤ وما بعدها ، الشعر والشـعراء ٢٧٦/١ ، الكامل للمبرد ٦٣/٣ ، أسد الغابة ٢٦١/٤ ، وغيرها .
(٢) الأغانى ٩٣/١٤ .

جزى الله عنا جعفرا حيث أشرفت
بنـا نعلنـا فى الواطئـــين فزلت
أبوا أن يملونا ولـــو أن أمنـــا
تـلاقى الذى يلقـــون منـــا لملت
فـذو المـال موفور وكل مصـعب
الى حجــــرات أدفـأت وأظلت
وقالت : هلموا الـدار حتى تبينوا
وتنجلى العميـــــاء عمـا تجلت

ليت شعرى ما الذى رأى من آل جعفر حتى يقول هذا فيهم !! قال : فكشف لبيد الثوب عن وجهه وقال : يا ابن أخى انك لو أدركت الناس وقد جعلت لهم شرطة يدعون بعضهم عن بعض ، ودار رزق يخرج الخادم بجرابها فتأتى برزق أهلهـا ، وبيت مال يأخـذون منـه أعطيتهم ، ولو أدركت طفيلا يوم يقول هـــذا لم تلمه ، ثم استلقى وهو يستغفر الله » (١) ٠

ومن هنا نستطيع أن نتصور الأثر العميق الذى تركه الاسلام فى نفس ابن ربيعة ٠ وقد امتدت الحيـاة بلبيد ، حتى سئمها ، وأعلن هذا السأم فى قوله :

ولقد سئمت من الحيـــاة وطولهـا
وسؤال هـذا الناس : كيف لبيـد ؟

وهو لذلك يعد من المعمرين ٠

وهنـا يتراءى لى أن ألمح الى ما ذكره الرواة من أن لبيدا لم يكن له ولد ذكر ، وأنه « لما حضرته الوفاة ، قال لابن أخيه - ولم يكن له ولد ذكر - يا بنى ان أباك لم يمت ولكنه فنى ، فاذا قبض أبوك » ثم أنشد قوله :

---

(١) الأغانى ٩٣/١٤ ٠

واذا دفنت أباك فاجعل فرقه خشبا وطينا (١)

والعجب من قول الرواة هـذا ، لم لا يكون المخاطب ولد لبيد الذى تكنى به - عقيل - ؟ ألا ترى معى أنه يخاطبه بقـوله : « يا بنى » ، وبقـوله : « واذا دفنت أباك » ؟ ان المخاطب ان لم يكن ولـده لخاطبه لبيـد بقوله : « يا ابن أخى » ، أضف الى ذلك ما ذكرته الرواية القائلة : بأن لبيدا قدم مع بنيه ، وأن بنيه عادوا بعد هجرتهم أعرابا » (٢) .

وهم مجمعون على أن للبيد بنتين ، وهما اللتان قال لهما عند احتضاره :

تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهما
وهل أنا الا من ربيعة أو مضر ؟

وهاتان البنتان لعلهما بسرة وأسماء اللتان يذكرهما فى شعره ، كما فى قوله :

وأبوك بسر لا يفنـد عمـــره
والى بلى ما يرجعن جديد (٣)

وقوله :

طافت أسـيماء بالرحال فقـد
هيج منى خيالهـا طـربا (٤)

وتدرك لبيدا أمنيته بالكوفة ، ويدفن فيها ،بعد حياة طويلة اختلفحول تحديدهاالمؤرخون والراوة ، فمنهم من

---

(١) الأغانى ٩٧/١٤ .
(٢) انظر الشعر والشعراء ٢٧٥/١ ، الاصابة ٦٧٦/٥ .
(٣) الديوان ص ٣٥ .
(٤) الديوان ص ٢٥ .

يجعل وفاته فى أول خلافة معاوية عام واحد وأربعين للهجرة يوم دخل معاوية الكوفة وتسلم الخلافة من الحسن بن على رضى الله عنهما (١) . ومنهم من يجعل وفاته فى آخر خلافة معاوية (٢) .

ومحقق الديوان يفترض أنه لم يدرك عهد على أو عهد معاوية ، وأنه توفى فى أيام عثمان (٣) ومن ثم تختلف المدة الزمنية التى عاشها طولا وقصرا حسب كل رواية ، على أنهم متفقون على أن لبيدا كان من المعمرين .

والرأى عندى أن لبيدا لم يمت فى عهد عثمان ، ولا فى أول خلافة معاوية ولا فى آخرها ، وأنه قضى نحبه فى خلافة معاوية سنة احدى وخمسين للهجرة .

اذ أن الذين يجعلون وفاته فى أول خلافة معاوية يقولون : ان معاوية أراد أن يحط عطاء لبيد الى حيث كان قبل أن يزيده عمر ، فكتب بذلك الى زياد بن أبيه ـ عامله على الكوفة ـ قائلا : ما بال العلاوة بين العدلين ؟ فجاء لبيد ليأخذ عطاءه . فقال زياد : أبا عقيل ، هذان الخرجان ـ يعنى الألفين ـ فما بال العلاوة ؟! قال : ألحق العلاوة بالخرجين ، فانك لا تلبث الا قليلا حتى يصير لك الخرجان والعلاوة . فأعطاه زياد ألفين وخمسمائة ولم يعطها غيره ؛ فما أخذ عطاء آخر حتى مات رحمه الله (٤) .

وهذا القول حجة لنا عليهم ، لأن زياد بن أبيه ما كان من ولاة معاوية الا فى سنة خمس وأربعين للهجرة ، حين

---

(١) الشعر والشعراء ٢٧٥/١ ، وطبقات ابن سعد ، والاصابة ٦٧٦/٥ .

(٢) الأغانى ٩٠/١٤ .

(٣) مقدمة الديوان ص ٢٩ .

(٤) انظر : المعمرون والوصايا ص ٧٦ وما بعدها .

ولاه معاوية البصرة وخراســان وسجستان ، ثم ضم اليــه الكوفة حين مات واليها المغيرة بن شعبة فى سنة خمسين للهجــرة (١)

ومعنى هذا أن لبيــدا قــدم الى والى الكوفة ـ زياد ابن أبيه ـ فى مطلع سنة احــدى وخمسين ، فدار بينهمــا الحوار السالف الذكر ، ولم يأخذ لبيد عطاء آخر لأنه مات فى نفس السنة .

ومن العجب العجاب أن أجد بين الذين يجعلون سنة احدى وأربعين سنة وفاته من يقرر أن لبيدا قضى من عمره فى الاسلام خمسا وخمسين سنة (٢) وفيه ـ كمــا ترى ـ لبس كثير ، اذ يترتب عليــه أن يكون لبيد قد أســلم قبــل الاسلام !! وهذا وهم وغفلة .

والذى تقرر الآن يدمــغ افتراض محقــق الديوان ، ليبقى للرد عليه الرأى الذى يجعل وفاته فى آخر خـلافة معاوية ، والرد عليه سهل ميسور ، ويكفى أن نقرأ ما رواه أبو الفرج الأصفهــانى وأبو حاتم السجستانى وابن حجــر العسقلانى ، عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تنشــد بيت لبيد :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم
وبقيت فى خلف كجـلد الأجرب

ثم تقول : رحم اللـــه لبيدا ، فكيف لو أدرك زماننــا هــذا ؟! وفى رواية أبى الفرج : فكيف لو أدرك من نحــن بين ظهرانيهم ؟!

---

(١) الطبرى ١٤٣/٤ وما بعدها .
(٢) انظر الاصابة ٦٧٩/٥ .

فعائشـــة رضوان اللـــــه عليها تترحم على لبيـــد وهى تتمثل بقوله ، وهذا يعنى أن لبيدا قد مات فى حياة عائشة التى توفيت فى ســنة ثمان وخمسين للهجرة فى خـــلافة معاوية ؛ ولو كانت وفاته فى آخر خـلافة معاوية لما تأتى هذا القول من عائشة رضى الله عنها · ومن ثم تكون وفاته فى سنة احدى وخمسين للهجرة ، بعد حياة حافلة امتدت مائة وثنتين أو ثلاثا وثلاثين ســنة (١)·، قضى منهـا فى الاســلام سبعا وأربعين سنة باضافة السنين الخمس التى كان فيها مسلما وشاء له الرسول عليه الصلاة والسلام فى أثنائها أن يكون من المؤلفة قلوبهم ·

لهذا العمر الطويل عــد لبيد من المعمرين ، اذ كانت العرب لا تعد معمرا الا من عاش مائة وعشرين فما فوقها ، وقيل مائة سنة وستا وعشرين سنة فصاعــدا (٢) وليرحم الله لبيدا الجواد المسلم والشاعر المخضرم ·

* * *

---

(١) وهذا قريب من قول ابن الكلبى وغيره الذى قال : « عاش لبيد ثلاثين ومائة سنة » المعمرون والوصايا ص ٧٦ ·

(٢) انظر : كتاب المعمرين من العرب ص ١ ·

القسم الثانى

شاعرية لبيد وشعره

١ ـ شاعرية لبيد وشعره ، وموقف أولى البصر عنهما

٢ ـ شعر لبيد فى الجاهلية وأبرز فنونه

٣ ـ المنهجية فى شعر لبيد الجاهلى

شاعرية لبيد وشعره

وموقف أولى البصر منهما

تفتحت موهبة الشعر عن أكمامها فى نفس لبيد مبكرة، وتفجرت ينابيعها فى صدره وهو صبى ، بدليل ما ذكره الأصفهانى « كان لبيد يقول الشعر ويقول لا تظهروه ، حتى قال :

(عفت الديار محلها فمقامها) فقال لهم حينئذ : أظهروه » (١) .

وظل شعره طى قبيلته قابعا فى دائرتها لأنه لم يكن شديد الثقة فى أشعاره ، الى أن وقف من الربيع بن زياد موقفه الرائع بين يدى النعمان بن المنذر فانفتحت أمامه أبواب الشهرة والذيوع على مصاريعها ، وأصبح لسان القبيلة . وكأن هذا الحدث العظيم قد حدد موقف لبيد من الشعر ، وقوى الحوافز القبلية فى نفسه ، مما كان له أثره الذى لا يجحد فى حياته الشعرية .

بيد أن هذا التقدير تعترض طريقه رواية ذائعة تجعل هذه الواقعة بداية عهد لبيد بالشعر ، وتصوره غلاما حدثا بين أعمامه يلهو ويلعب ، ويخلفهم فى رحالهم ، يحفظ أمتعتهم ، ويغدو بابلهم فيرعاها ، ولذلك ابتلاه أعمامه وامتحنوا مقدرته بوصف البقلة التربة ، ولم تغن اجادته فى وصف البقلة عندهم فتيلا ، فقد زعموا أنه انما تكلم بما جرى على لسانه ، وأنظروه حتى يصبحوا ، ولهذا باتوا يرقبونه ويرمقونه ، فلما رأوا أن الغلام أرق لهذا الموقف ليله كله أيقنوا أنه ند الربيع ، وحلقوا رأسه وتركوا له ذؤابتين وألبسوه حلة ، وغدوا به معهم على النعمان ، وكان

---

(١) الأغانى ١٤/٩٣ .

لبيد قد دهن أحد شقى رأسه ، وأرخى أزاره وانتعل نعــلا واحدة ، فلما أذن لهم دخلوا فاذا الملك على طعامه ، ومعـه صفيه الربيع بن زياد ، فرجز به لبيد رجزا ممضا مؤلمـا ، منه : مهلا — أبيت اللعن — لا تأكل معه ، فلم يكد النعمـان يسمع هذا الرجز حتى تأذى والتفت الى الربيع يرمقه شَزرا ، وكف عن الطعام ، وأقبل على بنى جعفر (١) .

والرواية تثبت تفوق لبيد على الندماء ، وقيامه من قومه مقام المحامى الذائد ، وتدلنا على طبيعة لبيد حين كان ينظم الشعر ، والسنن المرعيـة فى مواقف الانشـاد ، وعلى الأخص الهجاء .

الا أنها تنخرم عندنا من اصرارها على أن رجز لبيد فى الربيع كان أول ما جادت به قريحته فى دنيـا القروض ، وعلى أنه كان حينئذ غلاما صغيرا حدثا .

اذ أن من المعروف أن النعمان توج ملكا حوالى سـنة اثنتين وثمانين وخمسمائة (٢) ويكون عمر لبيد آنئذ لا يقل عن تسع وثلاثين سنة ، فلم يكن صبيا ، وانما كان فى أوج شبابه المتشوف من كثب الى مطالع الشيخوخة كما تسـفر الحقائق ؛ ومن ثم تكون هذه القصة قد حدثت ولبيـد قـد طبقت شهرته الشعرية الآفاق .

يعضد هذا الرأى ويقويه ما روى عن حمـاد الراويـة « نظر النابغة الذبيانى الى لبيد بن ربيعة وهـو صـبى مع أعمامه على باب النعمان بن المنذر ، فسأل عنه ، فنسب له ، فقال له : ياغلام ان عينيك لعينا شاعر ، أفتقرض من الشعر شيئا ؟ قال : نعم يا عم ، قال : فأنشدنى شـيئا مما قلتـه . فأنشده قوله : « ألم تربع على الدمن الخوالى ؟ » فقال له :

---

(١) أمالى المرتضى ١/١٩٠ وما بعدها .
(٢) انظر المرجع السابق ١/١٨٩ .

يا غلام أنت أشعر بنى عامر ، زدنى فأنشده « طلل لخولة بالرسيس قديم » فضرب بيديه الى جنبيه وقال : اذهب فأنت أشعر من قيس كلها ، أو قال : من هوازن كلها .

وقد زادت هذه الرواية « أن لبيدا ينشده قوله : (عفت الديار محلها فمقامها) فقال له النابغة : اذهب فأنت أشعر العرب »(١) .

وهنا يروق لى ما قاله الدكتور احسان عباس : « ان هذه الرواية صنو لتلك من ناحية ومكملة لها من ناحية أخرى ، صنو لها لأنها تفترض أيضا أن لبيدا كان صبيا على باب النعمان ، ومخالفة لها لأنها تفترض أنه كان قد قال قصيدتين أو ثلاثا من أجمل شعره ، وأولى القصائد الثلاث مما يمكن أن ينسب الى الفترة التى عاشها قبل اغترابه الى اليمن ، أما الاثنتان الآخريان فانه قالهما بعد تميز عامر ابن الطفيل ، وفى الثانية يذكر يوم الذهاب ، وهو من الأيام التى كان بطلها عامر المذكور ، ومن الاغفال للناحية التاريخية أن يقال : ان لبيدا كان حينئذ غلاما على باب النعمان »(٢) .

وقد ظلت هذه الشاعرية الفذة والموهبة الصادقة تقوى فى نفسه وتتأجج حتى أصبح - باجماع الرواة - واحدا من شعراء المعلقات ، بقصيدته التى مطلعها :(٣)

عفت الديار محلها فمقامها
بمنى تأبد غولها فرجامها
فمدافع الريان عرى رسمها
خلقا كما ضمن الوحى سلامها

---

(١) الأغانى ١٤/٩٧ .
(٢) مقدمة الديوان ص ٢١ .
(٣) الديوان ص ٢٩٧ .

ومعلقته هذه معدودة ـ بالاجماع ـ من الشعر الرفيع الدرجة ٠

وشاعرية لبيد ظلت متأججة فى صدره طوال حياته فى جاهليته واسلامه ؛ هذه الشاعرية جعلت الفرزدق يسجد عندما سمع رجلا ينشد قول لبيد :

وجلا السيول عن الطلول كأنها
زبر تجد متونها أقلامها

ولما أنكر الناس منه ذلك بقولهم : ما هذا يا أبا فراس؟! قال : أنتم تعرفون سجدة القرآن ، وأنا أعرف سجدة الشعر(١) ٠

وهذا التشبيه لبقايا الأطلال فى دقتها وتتابعها واستطالة أعلامها كأنها سطور فى كتاب ، يعتبره البلاغيون وأهل الذوق من التشبيهات العالية الطبقة ، ناهيك بهذه الموسيقى المنبعثة من الملاءمة بين كلمتى « السيول والطلول » ، وهذا وذاك جعلا الفرزدق يسجد هذه السجدة للبيت ٠

* * *

تدفقت هذه الشاعرية الملهمة فى ينابيع شعر لبيد ، فجاء شعره متقنا ، ملء ردائه الابداع ، وطى دثاره الخلابة ، يزهو باشراق الديباجة ، ويميس بصفاء النغم والجرس الموسيقى الأخاذ ٠ ويتألق فى تاجيه اللذين صاغهما الجمال والجلال ٠

واذا كان الشعر عند لبيد تجاوبا مع أصداء نفسه فانه

---

(١) انظر الاصابة ٦٨٠/١ ، الأغانى ٩٥/١٤ ٠

كان من جهة أخرى وسيلة لغاية ، فقد اختار الشعر وسيلة للظهور والتألق فى مجتمعه حين اختار غيره من أبناء قومه لهذه الغاية طريق الزعامة أو الحرب ، مما مكن له فى دولة الشعر ، وأعلى كعبه فى عالم القريض ، وكان للخطابة التى يملك مقوماتها وللرجز الذى تثنى على يديه أزمته الأثر الفعال فى تمكين شهرته فى مضمار الشعر ، وتفوقه على كل من عاصره من أبناء قومه الشعراء ، من أمثال : خداش ابن زهير وعامر بن الطفيل والأحوص وابنه عوف ومعود الحكماء وغيرهم .

وشهرته هذه لم تكن من فراغ ، فقد شهد له النابغة الذبيانى – فى رواية – بأنه « أشعر العرب » وسجد الفرزدق حين سمع بيتا له (١) وهو – بلا ريب – أحد أصحاب المعلقات ، ثم ان شعره – فيما بعد – قد نال حظوة واعجابا واسعين ، فهذا ابن سريج المغنى يغنى أبياتا من معلقته ، والأبجر يغنى فى احدى مرثياته لأربد ، وبعض المغنين يغنى المعتصم قوله :

وبنو العباس لا يأتون لا
وعلى ألسنهم خفت نعم
زينت أحلامهم أحسابهم
وكذاك الحلم زين للكرم

فيقول المعتصم : لمن هذا الشعر ؟ قال : للبيد ، قال وما للبيد وبنى العباس ؟

قال المغنى : انما قال : وبنو الريان ، فجعلته وبنو العباس . فاستحسن فعله ووصله ، وكان المعتصم يعجب بشعر لبيد فاستنشد الحاضرين قوله :« بلينا وما تبلى النجوم الطوالع » فانشدوه اياها ، فبكى المعتصم حتى جرت دموعه ،

---

(١) انظر : الأغانى ١٤/٩٥ ، ٩٧ .

وترحم على المأمون وقال : هكذا كان رحمة الله عليه ، ثم اندفع ينشد بقية أبيات القصيدة (١) ، ويغنى حنين رائعة لبيد هـــذه .

ولاسحاق الموصلى غناء فى أبيات لبيد التى رثى فيها نفسه قبيل موته ، والتى أولها :

أبنى هل أبصرت أعمامى بنى أم البنينا ؟! (٢)

ولعل إقبال المغنين والملحنين على شعره راجـع الى هذه الثروة من الحزن والأسى ، المنبثة فى تضـــاعيفه ، والتى تلائم الألحان الشجية الحزينـــة ، وتشـــاكل أنات الأسى .

وأمر ذيوع شعر لبيد لم يقف عند هذا الحـــد ، فقد راجت بعض أبيات له رواجا عظيما ، وأضحت أمثالا سائرة يتمثل بها الناس ، من ذلك ، أن السيدة عائشة رضى الله عنها كانت تتمثل بقوله :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم
وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

وتقول : رحم الله لبيدا فكيـف لـو أدرك زماننـــا هـــذا ؟! (٣)

ويتمثل كذلك بقوله فى لاميته التى أولها : « ان تقوى ربنا خير نفل » :

---

(١) انظر الأغانى ١٤/٩٥ ، ٩٦ .
(٢) الديوان ص ٣٢٢ .
(٣) الاصابة ٥/٦٨٠ ، الاستيعاب ٣/١٣٣٧ .

وأكـذب النفس اذا حدثتهـا
ان صدق النفس يزرى بالأمل ..
فاذا جوزيت قرضـا فاجـزه
انما يجزى الفتى ليس الجمل

وقوله :

قوم لهم عرفت معـد فضلهـا
والحـق يعرفه ذوو الألبـاب

وكثيرا ما يتمثل بقوله :

ألا كل شيء ما خلا اللـه باطل
وكل نعيـم لا محـالة زائل

وبقوله :

ما عاتب المرء الكريم كنفسـه
والمرء يصلحه الجليس الصالح

الى غير ذلك من شـواهد الاعجـاب التى تدل على تألق شـعره فى صدق تجربتـه وعمقها وفيضان عاطفتـه وتأججهـا ونبل مشـاعره ورقتها وبروز ذاتيتـه وشـموخ انسانيته .

ثم ان علمـاء النحو قد وجدوا فى شـعر لبيد ميـدانا لشـواهدهم ، لمـا فيـه من ثروة هـائلة ، فاسـتشهدوا بكثير من أبياته ، على غرار استشهادهم بقوله :

وما المرء الا كالشـهاب وضوئه
يحور رمادا بعد اذ هو ساطع

على أن « حار » من الأفعال الناقصة التى تستعمل بمعنى صار . وبقوله :

فان حان يوما أن يموت أبوكما
فلا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر

على أن التنوين قد يحذف من الاسم المنصوب الذى لم يمنع من الصرف . وبقوله :

فأرسلها العراك ولم يذدها
ولم يشفق على نغض الدخال

على مجىء الحال جامدة مؤولة بالمشتق (أى معتركة). وبقوله :

رأيت التقى والجود خير تجارة
رباحا اذ ما المرء أصبح ثاقلا

على استعمال « رأيت » بمعنى علمت الناصبة للمفعولين . وبقوله :

حتى تهجر فى الرواح وهاجه
طلب المعقب حقه المظلوم

على أن « المظلوم » بالرفع صفة للمعقب باعتبار محله لأنه مضاف الى طلب من اضافة المصدر الى فاعله . وبقوله :

ألا تسألان المرء ماذا يحاول ؟
أنحب فيقضى أم ضلال وباطل ؟

على أن « ما » اسم استفهام مبتدأ غير مركبة مع ذا ،

وهى اسم موصول خبر ، بدليل رفع البدل وهو « نحب »
ولو كانت « ذا » مركبة مع « ما » لوجب أن تكون فى محل
نصب بالفعل بعـدها ، وكان يجب اذن أن ينصب البـدل
وهو « نحب » . الى غير هذه من شواهد أصحاب النحو ،
وقد ساعد هذا الجانب بالطبع على ترديد بعض شـعره
وذيوعه .

***

شعر لبيد فى الجاهلية وأبرز فنونه

لشعر لبيد مرحلتان : تمثل أولاهما تلك الفترة التى قضاها فى الجاهلية ، وثانيتهما هذه الفترة التى عاشها فى الاسلام ، ولن يتسنى لنا الحديث عنها الا بعد تقريرها، فهى لب البحث وجوهره .

فأما شعره فى الفترة الأولى فانه ينهض على الفخر والرثاء غالبا ، فقد كان لبيد فى الجاهلية - كما يقول ابن سلام - : خير شاعر لقومه يمدحهم ويرثيهم ، ويعد أيامهم ووقائعهم وفرسانهم (١) .

ولعل هذا المذهب الشعرى الذى اصطنعه لبيد لنفسه انما يرجع الى تأثره بنشأته ، تلك النشأة التى جعلته فخورا ملحا فى الفخر ، يكاد يتورط فى الغلو والاسراف ، مولعا بنفسه يشيد بفتوته وقوته وترفعه وابائه ، وتجشمه للأهوال ، واقباله على اللهو ، وكرمه وجوده ، وايثاره لاخوان الصدق ، وكسره شرة الخصم الألد ، وهذه النشأة جعلته فخورا بآبائه وأمجادهم ومآثر قومه ، ومشيدا بأيامهم وجحاجح سادتهم وصناديد فرسانهم ، وجملة مالهم من مناقب الشرف والسيادة فى الجاهلية ، على غرار رائيته التى مطلعها (٢) :

أعاذل قومى فاعذلى الآن أو ذرى
فلست وان أقصرت عنى بمقصر

والتى ذكر فيها ما يربو على ستة وعشرين اسما من آبائه وسادات قومه ، الذين يقول فيهم :

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٤٨ .

(٢) الديوان ص ٤٦ .

شـهاب حروب لا تزال جياده
عصائب رهوا كالقطـا المتبكر

وبائيته التى مطلعها (١) :

أرى النفس لجت فى رجـاء مكذب
وقد جربت لو تقتدى بالمجرب

والتى تناول فيها نفسه من جميع جوانبها ، وكشف عن صفاته ، كما فى قوله :

وعان فككت الكبل عنه وسدفة
سريت وأصحابى هديت بكوكب
ودعوة مرهوب أجبت وطعنة
رفعت بها أصوات نوح مسلب

وكقوله فى معلقته (٢) :

انا اذا التقت المجـامع لم يزل
منـا لزاز عشـيرة جشـامها
ومقسم يعطى العشـيرة حقها
ومغـذمر لحقوقهـا هضامها
فضلا،وذو كرم يعين على الندى
سـمح كسوب رغائب غنامهـا
مـن معشر سـنت لهم آباؤهم
ولـكل قـوم سـنة وامامها
لا يطبعـون ولا يبور فعالهم
اذ لا يميل فى الهوى أحلامهـا

---

(١) الديوان ص ٣ .
(٢) الديوان ص ٢٩٧ .

وهم السعاة اذا العشيرة أفظعت
وهمو فوارسها وهم حكامها

ومن هنا ففخر لبيد وقف على اعتداده بنفسه وقومه ؛ ولبيد لم يتجاوز هذا الفخر الى مدح الملوك ولا الى هجاء السوقة ، فلم يكن بحال مداحا ولا هجاء ، ولا من المتكسبين بالشعر ٠

وقلما كان يعنى بذكر المرأة فى مطالع أشعاره ، فما كان للغزل مقام — أى مقام — فى شعره ، ولعل أطول مقدمة غزلية هى مقدمة رائيته (١) التى تنم على أنه لم يذكر المرأة على أنها تيمته وسلبته لبه وأصبت فؤاده ، وانما ذكرها على أنها تعيره بالمشيب الذى جلل رأسه فاشتعل منه ، وبالكبر الذى حل بساحته فأقصى عنه ميعة الشباب ، يقول :

راح القطين بهجر بعد ما ابتكروا
فما تواصله سلمى وما تذر
منأى الفرور فما ياتى المريد وما
يسلو الصدود اذا ما كان يقتدر

الى أن يقول :

وفى الحدوج عروب غير فاحشة
ريا الروادف يعشى دونها البصر
كأن فاها اذا ما الليل ألبسها
سيابة (٢) ما بها عيب ولا أثر
قالت غداة التقينا عند جارتها
أنت الذى كنت لولا الشيب والكبر !!

---

(١) الديوان ص ٥٨ ٠
(٢) السيابة : أراد ان ريح فيها كالبلح ٠

ألا ترى أن سلمى قد هجرته ، وما أبقت على وصله فى شىء ، وفرت منه فرار الدابة من صاحبها ؟!!

ثم ألست معى فى أن اللون الغزلى عنده باهت ولذلك ينتقل منه سريعا الى الوصف الذى يجيده ، فللبيد باع لا تجحد فى فن الوصف ، وفى شعره حظ لا يخفى للطبيعة ومظاهرها من شمس وغيث ونخيل وموارد مياه بين الصفا وخليج العين ، وألوان النبات وما يتزين به الزهر من حمرة وخضرة وصفرة ، وما تكسوه الشمس باشراقها من البهجة والروعة وتمام الحسن ، كما فى قوله يصف النخل وقد دلت من ثقلها وكثرة حملها فكرعت فى الماء المتفجر بين الصفا وخيلج العين ، والنخل — على الرغم من طولها — سواجد ، أى مائلة الرءوس نحو الماء ، فلم يصبها العطش ، فى رائيته السابقة :

يشربن رفها عراكا غير صادرة
فكلها كارع فى الماء مغتمر
بين الصفا وخيلج العين ساكنة
غلب سواجد لم يدخل بها الحصر

وفى قوله يصور جمال الطبيعة وسحرها ، وأثر الغيث فى هذا الوادى الجميل :

وغيث بدكداك يزين وهاده
نبات كوشى العبقرى المخلب
أربت عليه كل وطفاء جونة
هتوف متى ينزف لها الوبل تسكب (١)

---

(١) الدكداك : ما ارتفع واستوى من الأرض . العبقرى : منسوب الى أرض يقال لها عبقر . المخلب : المخطط بالوان الصبغ . أربت : أقامت . الوطفاء : السحابة . الجونة : السوداء . الهتوف : التى فيها صوت من الرعد . ينزف : يذهب ، أى : اذا ذهب الوبل سكبت .

بذى بهجـــة كن المقانب صـــوبه
وزينـــه ألـــوان نـــور مشـــرب
جـــلاه طلوع الشمس لما هبطتـــه
وأشرفت من قضـفانه فـوق مرقب
بسرت نداه لم تسرب وحوشـــــه
بغرب كجذع الهاجرى المشـــذب
بمطـرد جلس علتـــه طريقـــة
لسمك عظـــام عرضت لم تنصـب
رفيع اللبـــان مطمئنـا عـــذاره
على خد منحوض الغرارين صلب
فلمـا تغشـــى كل ثغر ظلامـــه
وألقت يـدا فى كافر مسى مغـرب
تجافيت عنــــه واتقـانى عنـــانه
بشد من التقريب عجلان ملهب (١)

ان هـــذا الوصف الرائع يدل على استمتاع أصيـــل بالطبيعـة ، وروعتـه توحى بأن الشـــاعر لم يول المـرأة ومشاعر الحب إهتماما كبيرا ·

واذا كان للطبيعة ومظاهرها فى شعر لبيد هذا الحظ

---

(١) المقانب : جماعات الخيل · القضفان : المرتفعات والنشوز · المرقب : أعلى الجبل · بسرت نداه : كنت أول من اتاه · الغرب : حد كل شىء وهو هنا الفرس · الهاجرى : الحضرى · المشذب : المقشور عنه ليفه ، وهو يصف طول عنق فرسه · المطرد : المهتز لنشاطه · الجلس : الغليظ · الطريقة : المتن وما امتد منـه · سمك العظام : ارتفاعها · لم تنضب : لم تسو فى ارتفاع ، وذلك أشد لقوائم الفرس · اللبان : الصدر · المنحوض : القليـــل اللحم · الغـــرار : الجانب · الثغر : الطريق · الكافر : الليل · والضمير فى القت يعود على الشمس · مسى مغرب : وقت غروبها · تجافيت عنه : ارتفعت عن سرجه · الشد : الجرى · التقريب : فوق المشى · عجلان ملهب : مضطرم من شـــدة العدو كما تلهب النار ·

المذكور فقد كان للناقة الحظ الأوفر ، هـــذه التى حظيت بالشهرة والذيوع فى الشعر الجاهلى ، اذ أطال فى وصفها ، فناقتــه قوية سريعة كانها الســحاب قد أراق ماءه فخف واستسلم لأسير الريح ، وكانها حين يدفع بها فى الأسفار هذه الأتان الوحشية التى ظهر عليها الحمل ، وقد خلصت لفحلها بعد أن ازدحمت عليها الفحول ، وكثر فيما بينهـا الخصام ، ثم ثارت فى رأسه الشكوك ، وانتفضت فى نفسه الغيرة ، ففضل حياة العزلة ، فأسرعا يعدوان فى مطاردة ومضاربة ، تثير العثير ويثيره ، حتى يبلغا هـذه الربوة التى انحسر عنها الشتاء ، والتى عبثت بها الريح ، والتى فيها عين ثرة تفيض بالماء • الى جانب أن لبيـدا قد جمع لناقته من الملامح الانسانية ما يكاد ينسينا أنه حديث عـن الناقة ، ولكن عن علاقة الانسان بالحياة ، فى قصة تملؤها الحياة والعاطفة والصراع فى سبيل البقـاء ، والخوف من المصير المجهول، هى قصة هذه البقرة الوحشية البائســة ـ التى تشـبه ناقتـه فى قوتها وتحملها ـ التى عدت على طفلها ـ خشفها ـ العوادى فاكله السبع ، فهى تلتمسه فلا تجده ، وتلح فى التماسـه ، فتفعل ذلك فى النهـار وفى الليل ، ولكن الظلمة والعاصفة وما تثيره من مطر غزير ، وما تنشره من برد قارس ، كل ذلك يقعدها ، بيد أن اليأس لم يعرف طريقه الى قلبها ، فاذا ما انجلى الليـل وتنفس الصبح اندفعت باحثة صارخة ملتاعة ، وهيهات هيهات !! فقد أكل السبع ابنها ، ولم يبق منه الا أشـلاء ممزقة قد ضرحت على رمل المفازة •

وبينا هى غارقة فى هذا الخضم من الأحاسيس الحزينة المرتاعة الملتاعة اذا بالقدر الساخر يطل عليها فى صورة انسان قناص ، وآنذاك تتبدى عاطفة الحرص على البقاء ، وتلوح غـريزة الدفاع عن النفس ، لتتغلب على غـريزة الأمومة والحزن على الطفل الفقيد ، فتعدو أمام القناص لا تلوى على شىء ، وتسلم مصيرها الى قوائمها ، والخوف

يدفعها والرعب يلهبها ، حتى أمنت النبل ، وأيأست الرماة ، ثم عطفت على الكلاب ، فكانت بينها وبينهن معركة شرسة وحرب ضروس ، أسفرت عن قتيلين .

هذه البقرة يشبه الشاعر بها ناقته ، بعد أن شبهها بالسحاب مرة وبالأتان مرة أخرى ، فى قوله :

بطليح أسفار تركن بقية
منها فأحنق صلبها وسنامها
واذا تغالى لحمها وتحسرت
وتقطعت بعد الكلا خدامها
فلها هباب فى الزمام كأنها
صهباء خف مع الجنوب جهامها
أو ملمع وسقت لأحقب لاحه
طرد الفحول وضربها وكدامها
يعلو بها حدب الاكام مسجح
قد رابه عصيانها ووحامها..الخ(١)

ولهذا وصفه ابن العلاء بقوله : « انما كان لبيد صاحب صفات » (٢) .

وللبيد الى جانب الفخر - وما يطوى فيه من وصف - فن آخر جوده وبرع فيه ، هو فن الرثاء ، فقد كان كما يتحدث الرواة شاعر قبيلته ، يمدح أحياءها ، ويرثى أمواتها ، وعلى هذا يكون رثاؤه - فى الجاهلية - فنا فرضته عليه حياته فى قبيلته ، فالحرب نظام الحياة اليومى ، والموت فى ساحة الوغى وتحت سنابك الخيل شىء متوقع ، والحرب تطحن الصناديد ، وتطوى الأبطال ،

---

(١) انظر الديوان ص ٣٠٣ وما بعدها .
(٢) الشعر والشعراء ص ٤٠٩ .

وكان على لبيد أن يرثى صناديد قومه ، وأن يخلد أبطال عشيرته فى شعره .

من ذلك قوله فى رثاء بعض فرسان قومه ، كطفيل ابن مالك - فارس قرزل - وغيره (١) :

فلـم أر يومـا كان أكثر باكيـا
وحسـنـاء قامت عن طراف مجور
تبل خموش الوجـه كل كريمـة
عـوان وبـكر تحت قر مخـدر
أولئـك فابـكى لا أبالك واندبى
أبـا حـازم فى كل يـوم مذكـر
فشـيعهم حـمد وزانت قبـورهم
سرارة ريحـان بقـاع منـور

وليس للبيد فى الجاهلية فيمن التهتهم الحروب من أبطال بنى عامر مراث مفردة الا فى الطفيل بن مالك ، فى مقطوعته التى أولها (٢) :

لـما أتانى عن طفيل ورهطـه
هدوءا فباتت غلة فى الحيازم

وعوف بن الأحوص ، فى مقطوعته التى أولها (٣) :

قومى اذا نام الخلى فأبنى عوف الفواضل

أما من دون الطفيل وعوف فانه يتحدث عن مصارعهم - كما رأينا - جملة معا ، كأنما يسرد تاريخ البطولة بسرد أسماء الأبطال .

---

(١) الديوان ص ٥١ .
(٢) الديوان ص ٥٩ .
(٣) الديوان ص ٢٣١ .

ولعل لبيداً كان يتخذ من هـذا النهج وسـيلة لتهوين الموت على نفسه .

ومن اللائق هنا أن أنبه على أن لبيدا لم تكن له مرات فى النعمان بن المنذر ، وأن لاميته المضمومة التى منها :

ألا كل شىء ما خلا اللـه باطل
وكل نعيـم لا محـالة زائل

لم تكن فى رثاء النعمان كما يزعم البعض ، من أمثال الدكتور : محمـد هاشـم عطية (١) ، والدكتور : احسـان عباس (٢) ، والدكتور : يحيى الجبورى (٣) ، فالقصيـدة تقطع - بما لا يدع مجالا للشك - بأنها اسـلامية ، ولبيد عنـدما تحدث عن النعمـان وأجناده وكيف بادوا لم يكن يرثيه ، وانما كان يتحدث عن عظة الموت وكيف يأتى على الملوك والفحـول والأمم ، والنعمـان نموذج واضـح على تقرير هذه الحقيقة .

***

(١) الأدب العربى وتاريخه ص ٢٥٧ .
(٢) مقدمة ديوان لبيد ص ٢٤ .
(٣) لبيد بن ربيعة العامرى ص ٣٢٤ .

المنهجية فى شـــعر لبيد الجاهلى

تجدر الاشارة الى أن شـعر لبيد فى هـــذه المرحـــلة - الجاهلية - نموذج حقيقى للشعر الجاهلى ، وأن القصيدة الجاهلية عنده قد لخصت خصائص الشعر الجاهلى ، من الناحيتين : الشكلية والموضوعية ، « فهى تامـة الصياغـة الفنية التقليدية ، وهى تمثل قمة الحرفة الفنيـة ، ثم هى بعد ذلك تسير وفق التتبع الموضوعى للقصيدة الجاهلية »(١) ولعل ذلك هو ما قصد اليه الأصمعى فى قوله : « شعر لبيد كأنه طيلسان طبرانى » (٢) يعنى أنه محكم الصنعة متكامل الجزئيات ، وليست له حـلاوة ، فما فيه من رتابة أفقـده عنصر الاثارة .

ولنقف قليلا عند واحدة من أشـهر قصائده ، لنتبين مدى تلخيصها لخصائص الشعر الجاهلى ، والحرفة الفنية ، والتتبع الموضوعى ، ولتكن معلقته هذه التى تعتبر أجمل وثيقة تاريخيـة على صدق هـذا الأدب الجاهلى ، وثبات أصله ، ورسوخ قدمه ، لشـدتها وصدق انتزاعها من صميم الصحراء .

فمطلعها المطلع التقليدى لمعظم القصائد الجاهلية ، ذكر الديار ، وما اختلف عليها من الأحداث ، وما عرض لها من الخطوب ، بعد أن رحل عنهـا الأحبة ، وقد عريت - بعد رحيلهم - أمام ناظريه من الحياة ومن الحب ، فانكفأ على خيـاله ينقب فى أجنحتـه عن ذكرياته ، ويفجر عاطفتى الحنين والشـــوق ؛ وقد حاربتها الطبيعـة فمحت آثارها السيول ، وانتجعتها الظباء ، حتى أضحت أطلالها أثرا كاثر

---

(١) الشعر الجاهلى . د. سيد حنفى حسنين ص ٢٥٠ .
(٢) الموشح للمرزبانى ص ٧١ .

الكتابة فى الحجارة محيت ثم جددت ، فلا تكاد تظهر الا بطول النظر وشق النفس :

عفت الديار محلهـا فمقامهـا
بمنى تأبد غولهـا فرجامهـا
فمدافع الريان عرى رسـمها
خلقا كما ضمن الوحى سلامها

وطال بـه وقوفه على الأطـلال ، وهاجتـه عوامـل الذكرى ، وأحزنته يد الطبيعة التى محت كل أثر لأحبته ، فاتجـه بسؤاله الى بقايا الأطلال ، رغبـة فى تهيئة الجـو الشـعرى :

فوقفت أسألها وكيف سـؤالنا
صما خوالد ما يبين كلامها ؟!
عريت وكان بها الجميع فأبكروا
منهـا وغودر نؤيهـا وثمامهـا

وانتقل من هنا الى ذكر حبيبته التى أحيا ارتحالها فى نفسه الشوق والحزن معا :

سـاقتك ظعن الحى حين تحملوا
فتنكسـوا قطنـا تصر خيامهـا

وانتهى به شوقه وحزنه الى يأسه من صاحبته « نوار »:

بل ما تذكـر مـن نوار وقـد نأت
وتقطعت أسـبابها ورمامهـا
مـرية حلت بفيـد وجاورت
أهل الحجاز فأين منك مرامها ؟

وشرع يعزى نفسـه ويسرى عنها باقتحام الصحـراء.

وتجشم أهوالها على متن ناقته ، فوصفها أدق وصف وأوفاه ـ كما بينا سلفا ـ لكن الذى نلفت اليه هنا أن الشاعر بعد أن عبر الموضوعين التقليديين : ذكر الديار والوقوف على الأطلال ، وتذكر الأحبة ، وسلكهما فى صورهما التقليدية ، كما كان يفعل الشعراء وأكثر ، نتيجة اخلاصه لكل التراث الفنى فيهما ، رأيناه ينتقل الى موضوع تقليدى آخر بكل صوره وتفاصيله وهو وصف الناقة ، فيكثر من تشبيهها ، وفى كل تشبيه من هذه التشبيهات يستقصى وصف المشبه به حتى يصل الى غايته .

« وما طريق الشاعر الى التحقيق والوصف الدقيق اذا هو لم يعمد الى التشبيه والاستعارة والمجاز ، والى هذا الفن الذى عمد اليه لبيد من القصص الساذج اليسير ؟ » (١) :

بطليح أسفار تركن بقية
منها فأحنق صلبها وسنامها

والشاعر قد بذل كثير جهد من فنه وقدراته فى وصف ناقته التى استقبل بها الصحراء ، وكان ما يزال يتيه فى هذه الغرابة الدامسة ، وبينا هو كذلك اذ تخلص الى الفخر بنفسه ، متغنيا بها وبعزتها وابائها ، ورفده وكرمه ، فى حديثه الى صاحبته :

أو لم تكن تدرى نوار بأننى
وصال عقد حبائل جذامها ؟!
تراك أمكنة اذا لم أرضها
أو يعتلق بعض النفوس حمامها ؟!

كذلك يتغنى بأنه رجل الحرب وفارس الوغى :

---

(١) حديث الأربعاء ٣٤/١ .

ولقـد حميت الحى تحمل شـــكتى
فرط وشـــاحى اذ غــدوت لجامها

وأن له مواقفه فى محافل الخصومة والمفاخرة :

وكــثيرة غرباؤها مجهـــولة
ترجى نوافلهــا ويخشى ذامها
أنكرت باطلها وبؤت بحقهــا
عنـدى ولم يفخر على كرامها

وأنه كريم مضياف حسن الجوار ، وهذه صفات قومــه جميعا ، هؤلاء الذين حازوا المجـد والقوة والبأس والكرم والنجدة ، وهذا الفخر بقبيلتــه انما يبرز انتماء الشـــاعر لقبيلته وقومه ، وشعوره العميق بأنه فرد منهم لا عز له الا اذا عزوا ، ولا كرامة له الا اذا كرموا ، فالخصال التى جمعها على قومه مصـــدر من مصــادر زهوه وموطن من مواطن تيهه :

انا اذا التقت المجامع لم يزل
منا لزاز عشـــيرة جشـــامها

فهو كمــا ترى قد لخص فى معلقته هــذه التى بلغت ثمانيــة وثمانين بيتا كل ما تناوله الســـابقون عليــه من مواضيع تقليـدية بصور ليســت بالجـديدة ، وانما هى متجددة ، لأنه أضفى عليها من شخصيته وأسبغ عليها من روحه ، فطبعت بهما ، وميزته عن غيره من الشـــعراء ، وأبرزته لنا شــاعرا يعرف كيف يحاور الشــعر ويداوره ، ويثقفه ويهذبه ، وينقحه ويتقنه ، حتى لتكاد تختفى فيه الصنعة ، ويظهر كأنه وليد الخاطر وابن البديهة ، ويؤكد على أن الشاعر قد وصل بفنية الشـعر الجاهلى الى أرقى مستوى . وان قصائده الشــوامخ ـ فى هذه الفترة ـ فى

بنائها المحكم ، ونسجهـا القوى ، وموسيقاها المتدافعـة ، وعمق معانيها ، لتشهد لبانيها بالعناية الشديدة ٠

بيد أن الصعوبة اللغوية البادية فى شعره الجاهلى ، والتى مردها فى الغالب الى استغلال الشاعر معجم قبيلته الى حد بعيد ، والذى بقيت فيه جوانب غامضة لم تفسر (١) جعلت أبا عمرو بن العلاء يصف شعره بأنه «رحى بزر» (٢) يريد خشنا لا يحسن فى السمع ، لما فيـه من الاغراب الذى قد تستجفيه الآذان ولا تقع عليه الطباع ٠ فهو والأصمعى يقرران أنه شاعر ، « ولا يريان له من الحـلاوة ما يريانه لشاعر آخر ـ كالأعشى ـ فى مدائحـه وغزله وخمرياته ، وهذه فى الغالب مواطن حلاوة الكلام ، أما المفاخر والمراثى وهما ما آثره لبيد على غيره من ضروب الشـعر ، فقلما تظفر فيهما بموطن حلاوة ، لتعلق الكلام فيهما بالحقائق الواقعة والمآثر الصادقة ، ولكنهما ـ الأصمعى وابن العلاء ـ يثبتان له جودة الشعر وقوة أسر الكلام » (٣) ٠

ان لبيدا الذى اجتمعت له كل مقومات الشعر لم يكن بدعا فى صعوبة التركيب اللفظى ، فالشعر المضرى جميعه متين قوى محـكم !! ولم يستغرب ذلك منـــه ، لأنه كان يعيش فى بادية نجد ، وكان يعرف هذه المسميات بأسمائها ، ولم يكن فى مقدوره أن يسمى أشياء أو أماكن فى باديتـه بغير أسمائها ، ليروق لفظه ويعذب فى السمع !!

ولعل نظرة الأصمعى وأبى عمرو هـــذه ناشـئة عن التفاتهما الى هذا النوع القليل من قصائده الذى يسرد فيه سادة قومه تباعا فى سلك من النظم أشبه بعد الحاسبين ، وكان هذه القصائد صحائف تضم الأعلام العديدة وأسماء

---

(١) انظر مقدمة الديوان ص ٣٥ وما بعدها ٠

(٣) الموشح ص ٧١ ٠

(٣) الأدب العربى وتاريخه ص ٢٤٨ ٠

القبائل ، وليس فيها من جمال الشعر الا فضل الوزن القافية!! أو ناشئة عن التفاتهما الى ذاك اللون من الغزل الحائل الباهت فى شعره !! اذ أن النظرة الممعنة فى شعر الرجل من كل مناحيه جعلت ابن سلام يقول عنه:« وكان فى الجاهلية خير شاعر لقومه يمدحهم ويرثيهم ، ويعد أيامهم ووقائعهم وفرسانهم » (١) .

ومعلقة لبيد – بلا غرو – معدودة باجماع الرواة من الشعر العالى المكانة الرفيع الدرجة ، وشهادة النابغة – السالفة الذكر – له بأنه أشعر العرب ما زال صداها يرن فى أذنى ، فهى ما فتئت ذاهبة فى طريقها الى الصواب والرشاد .

***

---

(١) طبقات الشعراء ص ٤٨ .

القسم الثالث

شــعر لبيـد الاســلامى

والخصومة حوله

١ ـ الخصومة حول دعوى هجر لبيد للشعر فى ألاسلام

٢ ـ شعر لبيد فى الاسلام

٣ ـ أبرز فنون شعر لبيد الاسلامى

الخصومة حول دعوى هجر لبيد للشعر

فى الاسلام

ذكر جل الرواة والباحثين أن لبيدا قد أعرض عن نظم الشعر بعد أن أسلم ، من أمثال : الأصفهانى (١)، وابن قتيبة (٢) والمرتضى (٣) والمرزبانى(٤) والبغدادى(٥) وابن حجر العسقلانى (٦) ، وغيرهم ، وغالوا فزعموا أنه لم يقل فى الاسلام الا بيتا واحدا ، وأن الشعر الذى يحمل روح الاسلام انما يدل عندهم على أن لبيدا كان - فى جاهليته - يؤمن بالبعث مثل غيره من عقلاء الجاهلية ، كقس ابن ساعدة ، وزيد بن عمرو : ومنهم من ينسب مثل هذا الشعر الى غير لبيد من أمثال : قردة بن نفاثة (٧) واستدل هؤلاء على أن لبيدا لم يقل فى الاسلام شعرا بما روى عن الشعبى : من أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب الى المغيرة بن شعبة - واليه على الكوفة - : أن استنشد من قبلك من شعراء مصرك ما قالوه فى الاسلام ، فأرسل الى الأغلب العجلى - الراجز - أن أنشدنى ، فقال :

أرجزا تريد أم قصيدا ؟
لقد طلبت هينا موجودا !!

ثم أرسل الى لبيد أن أنشدنى ، فقال : ان شئت ما عفى عنه ؟ - يعنى الجاهلية - قال : لا ! ما قلت فى الاسلام :

---

(١) الأغانى ١٤/٩٠ وما بعدها ط الساسى .

(٢) الشعر والشعراء ١/٢٧٦ ط دار المعارف .

(٣) امالى المرتضى ١/١٨٩ ط الحلبى .

(٤) معجم الشعراء .

(٥) خزانة الادب ١/٣٣٤ .

(٦) الاصابة فى تمييز الصحابة ٥/٦٧٥ ومابعدها ط دار نهضة مصر .

(٧) انظر الاصابة ٥/٦٧٦ .

فانطلق الى بيته ، فكتب سورة البقرة فى صحيفة ثم أتى بها ، فقال : أبدلنى الله هذه فى الاسلام مكان الشعر . فكتب بذلك المغيرة الى عمر ، فنقص من عطاء الأغلب خمسمائة ، وجعلها فى عطاء لبيد ، فكان عطاؤه ألفين وخمسمائة ؛ فكتب الأغلب : يا أمير المؤمنين تنقص عطائى أن اطعتك ؟! فرد عليه خمسمائة ، وأقر لبيدا على عطائه.

وأراد معاوية أن ينقصه الخمسمائة بقوله : هذان الفودان — أو الخرجان — يعنى الألفين — فما بال العلاوة ؟ فقال لبيد : أموت ويبقى لك الفودان والعلاوة ، وانما أنا هامة اليوم أو غد ! فرق له وترك عطاءه على حاله .

واستدلوا أيضا بقول لبيد لابنته يوم أن هبت الصبا وكان مملقا مقترا فبعث اليه الوليد بن عقبة — والى الكوفة لعثمان بن عفان رضى الله عنه — بمائة ناقة وأبيات شعر : أجيبيه ، فلقد عشت برهة وما أعيا بجواب شاعر .

والحقيقة التى أريد أن أقررها : أن لبيدا لم يتوقف عن الشعر بعد اسلامه ، وليس هذا منى من قبيل حب الخلاف ، فلست ممن يشايعون مبدأ « خالف تعرف » ولكننى أسعى وراء الحقيقة ، ولو كلفنى ذلك عنتا ولأيا شديدين .

وهذا ديوانه بعد أن أعيد طبعه بتحقيق الدكتور : احسان عباس يؤكد لنا على أن لبيدا قد قال الشعر فى الاسلام ، وأن له شعرا اسلاميا كثيرا ، وأنه لم يكن شاعرا جاهليا فحسب — كما يزعم هؤلاء الرواة — وانما هو أيضا شاعر اسلامى ، أو بمعنى آخر : شاعر مخضرم ، لم ينضب معين شعره ، ولم تغض ينابيع نظمه ، حتى بعد اسلامه ؛ ولست ألقى هذا الرأى على عواهنه ، فهو رأى ناتج عن أدلة .

أولها : أن جل الرواة مجمعون على أن لبيدا قد أسلم قبل عام الوفود ــ العام التاسع للهجرة ــ سواء أكان ذلك يوم أن وفد على رسول اللـه صلى الله عليه وسلم مع وفد قيس لما اشتد بهم الجدب ، وفشت فيهم المجاعة بدعوة النبى صلى الله عليه والسلام بعد حادثة بئر معونة ، وأنشد لبيد النبى عليه الصلاة والسلام :

أتينـــاك يا خيـر البريـة كلهـــا
لترحمنـــا مما لقينا من الازل
أتينـــاك والعـــذراء تدمى لبانهـــا
وقد ذهلت أم الصبى عـن الطفـل
فان تدع بالسقيا وبالعفو ترسل السـ
ـماء والأمر يبقى على الأصـل
وألقى تكنيــه الشـــجاع استـكانة
من الجوع صمتا لا يمر ولا يحلى(١)

أو يوم أن أرسله عمه أبو براء الى النبى صلى اللـه عليه وسلم ومعه هدية ، يسأله أن يطب له من دبيلة «دمل» فى جوفه ، فرفض الرسول الهدية قائلا : لو قبلت من مشرك اقبلت منه ، وأعطى لبيدا مدرة بعد أن تفل عليها ، وقال له : دفها له بماء ثم اسقه اياها ، وقد أقام لبيد فى المدينة حتى حفظ بعض القرآن ، وكتب سورة الرحمن ، ثم رجع الى قومه بذكر البعث والجنة والنار ، فأنكره قومه ، وهجاه سراقة بن عوف بن الأحوص :

لعمـر لبيـد انه لابن أمـــه
ولـكن أبوه مسه قدم العهـد
دفعناك فى أرض الحجاز كأنما
دفعناك فحـلا فوقه قرع اللبد

---

(١) الازل : ضعف العيش . القى تكنيـه الشجاع : ضعف عـن القتال . الاصابة ٥/٦٧٨ .

فعالجت حماه وداء ضلوعـــه
وترنيق عيش مسه طرق الجهد
وجئت بدين الصابئين تشـــوبه
بألواح نجد بعد عهدك من عهد
وان لنـا دارا زعمت ومرجعا
وثم اياب القارظين وذى البرد

والمصادر تؤكد أن أخاه أربد قد لقيه بعـد عودته من المدينة ، فسأله عن الرسـول ، فذكر له صدقه وبره وحسـن حديثه ، وأنه قرأ له سورة الرحمن ، فلما فرغ منها ، قال له أربد : لوددت أن ألقى الرحمـن بتلك البرقة ، فان لم أضربه بسيفى فعلى وعلى (١) .

كما يجمع هؤلاء الرواة على أن وفادة عامر بن الطفيل وأربد بن قيس - أخى لبيد لأمه - وحيان بن سـلمى على الرسـول كانت فى عام الوفود ، وأن عامرا وأربد قد هما بالغدر برسول الله ، فدعا الرسول عليهما ، فتوفى عامر بالغدة منقلبه من المدينة فى بيت سلولية ، وأصابت أربـد صاعقة فأحرقته (٢) وقد رثى لبيد أخاه أربد بقصائد تعد من عيون الشعر ، لم ينكر مراثيه هذه واحد من الرواة . واسلام لبيد سابق على رثائه أربد .

وعلى هذا فان لبيدا المسلم يكون قد رثى أخاه ، وهو على الاســلام ، ولم يكن بحال على جاهليتـه التى حطم قيودها منذ وفادته على الرسول صلى الله عليه وسلم وان كان لم يعلن اسلامه الا فى العام التاسع للهجرة ، يوم أن وفد ضمن وفد بنى كلاب ونزلوا دار رمـلة بنت الحـارث فسلموا على الرسول سـلام الاســلام ، ورجعوا الى بلاد

---

(١) انظر الأغانى ١٣١/١٥ .

(٢) انظر الشـعر والشـعراء ٢٧٨/١ . يقال نزل فى اربد قول الله تعالى :« ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء » سورة الرعد : ١٣

قومهم (١) اذ كان لبيد فى الفترة السابقة على قدوم وفد قومه من المؤلفة قلوبهم ، ولعل الرسول شاء أن يعد لبيدا من المؤلفة قلوبهم لأنه أسلم وقومه ما يزالون على غير الاسلام (٢) ، ومن ثم نؤكد على أن مراثى لبيد فى أخية أربد قد قيلت بعد إسلامه ، وهذا ينفى ما شاع لدى القوم من أن لبيدا لم يقل فى الاسلام الا بيتا واحدا !!

علاوة على أن شعر لبيد فى أخيه يحمل فى كثير من جوانبه الروح الاسلامية ، بدليل أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه ـ كما ذكر المدائنى ـ لما أنشد قول لبيد فى أخيه أربد :

لعمرى لئن كان المخبر صادقا
لقد رزئت فى حادث الدهر جعفر
أخ لى أما كل شىء سألته
فيعطى ، وأما كل ذنب فيغفر

فقال أبو بكر رضوان الله عليه : ذلك رسول الله لا أربد بن قيس !! (٣) .

هذ الى جانب شعر لبيد الذى تؤكد الأحداث التاريخية ومناسباته أنه قاله بعد الاسلام ، كشعره فى رثاء عمه أبى براء ، وفى خروج قومه مع الجند الاسلامى الفاتح فى العراق والشام .

ثانيها : أن جل هؤلاء الرواة والباحثين يجمعون على

---

(١) انظر تاريخ الطبرى ٣٢/١٢ .
(٢) انظر مقدمة الديوان ص ٢٧ .
(٣) الأغانى ١٣٣/١٥ .

أن لبيدا أسلم فى التسعين من عمره ، وفى ذات الوقت يرون (١) أن لبيدا لما بلغ السابعة والسبعين قال :

قامت تشكى الى النفس مجهشة
وقد حملتك سبعا بعد سبعين
فان تزادى ثلاثا تبلغى أملا
وفى الثلاث وفاء للثمانين

فلما بلغ تسعين حجة قال :

كأنى وقد جاوزت تسعين حجة
خلعت بها عن منكبى ردائيا

فلما بلغ عشرا ومائة سنة قال :

أليس فى مائة قد عاشها رجل
وفى تكامل عشر بعدها عمر ؟!

فلما جاوزها قال :

ولقد سئمت من الحياة وطولها
وسؤال هذا الناس كيف لبيد ؟
غلب الرجال وكان غير مغلب
دهر طويل دائم ممدود
يوما أرى يأتى على وليلة
وكلاهما بعد المضاء يعود
وأراه يأتى مثل يوم لقيته
لم ينتقص وضعفت وهو يزيد

---

(١) كتاب المعمرين من العرب ص ٥٣ ط صبيح ، المعمرون والوصايا للسجستانى ص ٧٨ ط الحلبى ، الأغانى ٩٦/١٤ ، الاصابة ٦٧٨/٥ .

ويذكرون أن الشعبى ذكر هـذه الابيـات لعبـد الملك ابن مروان فى مرضه الذى مات فيه .

ومن ثم نستطيع القول بأن الشعر الذى ذكروه للبيد بعد التسعين شعر اسلامى من غير شك ، لانه قاله وهو على الاسلام .

أضف الى هذا ما تحدث الينـا به هؤلاء الرواة : من أن لبيدا قال شعر قبل أن يموت ، يعلم فيه ابنتيه (١) كيف تؤديان اليه حقه من الحزن عليه بعد موته ، وهو :

تمنى ابنتـاى أن يعيش أبوهمـا
وهل أنا الا من ربيعـة أو مضر ؟
فان حان يوما أن يمـوت أبوكمـا
فلا تخمشا وجها ولا تحلقا شـعر
وقولا : هو المرء الذى لا حليفه
أضاع ولا خان الصـديق ولا غـدر
الى الحول ثم اسـم السلام عليكما
ومن يبك حولا كامـلا فقد اعتـذر

وشعر آخر يعلم فيه ابنه أو ابن أخيـه ما يجب عليـه فعله عند ما يقبض أبوه ، وهو :

ابنى هـل أبصـرت أعـ
ـمامى بنى أم البنينـا ؟
وأبـى الـذى كان الأرا
مل فى الشـتاء له قطينا ؟
وأبا شـريك والمنـا
زل فى المضـيق اذا لقينـا

---

(١) هاتان البنتان لعلهما بسرة وأسماء اللتان يذكرهما فى شعره .

ما ان رأيت ولا سـمعت
بمثـله فى العـالمينا
فبقيت بعـدهم وكنت
بطـول صحبتهم ضنينـا
دعنى وما ملـكت يميـ
نى ان شـددت بها الشـؤونا
وافعـل بمالك ما بـدا
لك مسـتعينا أو معينـا
واذا دفنت أبـاك فاجـ
ـعل فوقه خشـبا وطينـا
وسـقائفا صـما رواسـ
ـيها يسـددن الغضـونا
ليقين حـر الوجـه سـ
ـساف التـراب ولـن يقينا

وهذا الشعر الذى قاله وهو يجود بنفسه يدعم رأينا ، ويؤكد على أن الرجل قال الشعر فى الاسـلام ، وأنه ظل يقول الشعر حتى ساعة الاحتضار ، الا أن يسـوغ الوهم لأصحاب الزعم السائر أن لبيدا لم يكن مسلما عندما حضرته منيته ، ولم يكن مسلما بعـد التسعين !! أو أن يتنكروا ـ مشايعة لما يزعمون ـ لهذا الشعر ، مثلما تنكروا لغيره من شعر الرجل الاسلامى !!

ولكن كيف يتأتى لهم ذلك ، وقد ذكروا هذا الشـعر وأثبتوه ؟!!

ومن هنا كان حجة عليهم ودليلا لنا ، لأن القضية اذا كانت قد ثبتت فى جانب منهـا فان ذلك ينسـحب عليهـا برمتها ، وينتفى آنئذ ما لم يقم عليه دليل ، وما تناقض حوله زاعموه !!

ثالثها : أن الذين يزعمون أن لبيدا لم يقل فى الاسلام

الا بيتا واحدا لم يتفقوا على هذا البيت ، وانمـــا اختلفوا فيه ، ففى رواية عن أبى عبيدة : أن البيت هو :

الحمـــد لله اذ لـــم يأتنى أجلـــى
حتى لبست من الاسلام سر بالا (١)

غير أن بعضهم انكر نسبة البيت للبيد ، مدعين نســبته لقردة بن نفاثة السلولى ـ عصرى لبيد ـ من أبيات أنشدها للنبى صلى الله عليه وسلم حين وفد عليه ، ومنها :

بان الشـــباب فلم أحفـــل به بالا
وأقبـــل الشيب والاســـلام اقبـــالا
وقـــد أروى نديمى من مشعشـــعة
وقـــــد أقلـــب أوراكـــا وأكفـــالا
والحمـــــد لله اذ لم يـــأتنى أجلـــى
حتى لبست من الاســـلام ســـر بالا

وعلى هذا فان البيت إلذى قاله لبيد فى الاسلام هو :

ما عاتب الحـــر الـــكريم كنفســـه
والمرء يصلحه الجليس الصـــالح (٢)

وابن الأثير يقول : « بل البيت الذى قاله فى الاســلام هو :

وكل امــــرىء يوما سيعلم ســـعيه
اذا كشفت عند الاله المحاصـــل (٣)

واختلافهم حول البيت بهذه الصورة يفتح طريقـــــا

---

(١) يروى : كسانى بدل لبست .
(٢) يروى اللبيب بدل الكريم . انظر : الشعر والشعراء ٢٧٥/١ ، والاصابة ٢٧٦/٥ ، والاستيعاب ١٣٣٥ ، ومعجم الشعراء ص ٢٢٣ .
(٣) أسد الغابة ٢٦١/٤ .

واسعا للشك والريب فيمــا روجوا وزعمــوا ، وينفى عنه اليقين .

رابعها : اغراق هؤلاء فى حيرتهم ، واضطرابهم حول أبيات لبيد التى تحمل روح الاسلام ، وتشير فى وضــوح وجلاء الى الاقتداء بالقرآن الكريم والاقتباس منه ، كقوله:

الا كــل شـــىء مــا خـــلا الله باطـــل
وكـــل نعيـــم لا محـــالة زائـــل
وكـــل أنـــاس ســـوف تدخـــل بينهم
دويهيـــة تصـــفر منهـــا الأنامـــل
وكل امـــرىء يوما سـيعلم ســـعيه
اذا كشـفت عنـد الاله المحاصـل (١)

فأما أبو عمر فقد رمى القصيدة كلها بالانتحال أولا ، وقال : أنها ليست للبيد ، وانما هى لقردة بن نفاثة . ولو تروى أبو عمر لأدرك صـحة نســبتها للبيد ، وأنها ليست منحولة عليه ، بدليل ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريــرة مرفوعا « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أصدق كلمــة قالها الشاعر كلمة لبيد » (٢) وذكر البيت ـ الأول ـ أو شطرا منه ، وروى أنه عليه الصلاة والسلام قالها على المنبر ، ثم اضطرب أبو عمر فقال ثانية : « فى هذه القصيدة ما يدل على أنه ـ أى لبيدا ـ قال فى الاسلام ، وذلك قوله :

وكل امـــرىء يوما ســيعلم ســـعيه
إذا كشـــفت عند الاله المحاصل (٣)

---

(١) فالبيت الأول مقتبس من قول الله عز وجل : « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » . والثانى مستمد من قوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت » ، والثالث : مقتبس من قول الله عز وجل : « افلا يعلم اذا بعثر ما فى القبور ، وحصل ما فى الصدور » .

(٢) صحيح مسلم ١٧٦٨/٤ .

(٣) الاصابة ٦٧٨/٥ .

واضطرب كذلك ابن حجر العسقلانى فقال : ان لبيدا انما قال هذا قبل أن يسلم ، اذ كان يؤمن بالبعث فى جاهليته ، ويعجب من خفاء هذا الأمر على الرجل قائلا : كيف يخفى على أبى عمر أنه قالها قبل ان يسلم مع القصة المشهورة لعثمان بن مظعون مع لبيد لما أنشد قريشا هذه القصيدة ، فلما قال : الا كل شىء ماخلا الله باطل ، قال له عثمان : صدقت ، فلما قال : وكل نعيم لا محالة زائل ، قال له : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول ·

ثم عاد ابن حجر بعد فقال : ويحتمل ان يكون زاد هذا البيت بخصوصه بعد أن أسلم ، ويكون مراد من قال : انه لم ينظم شعرا منذ أسلم يريد شعرا كاملا لا تكميلا لقصيدة سبق نظمه لها (١) ·

والذى أرجحه أن هذه القصة النقدية لم تكن مع عثمان ابن مظعون ، وانما كانت مع أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، يقول صاحب الموشح : « حدثنى أحمد بن ابراهيم الجمال وأحمد بن محمد الجوهرى قالا : حدثنا الحسين بن عليل العنزى قال : حدثنا يوسف بن حماد قال : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، قال : حدثنا سعيد بن حسان المخزومى قال : سمعت عبد الملك بن عمير يحدث أن لبيدا الشاعر قام على أبى بكر رحمه الله فقال : الا كل شىء ماخلا الله باطل ، فقال : صدقت ، قال : وكل نعيم لا محالة زائل · فقال : كذبت ، عند الله نعيم لا يزول (٢) ، وقد جاء هذا النقد فى ظلال نمو النقد الدينى ، وبدهى ان الشاعر لم يرن الىهذه الفكرة التى لحظها الصديق ، وانما أراد ما يراه الناس من أحوال الدنيا فى تغيرها وقلة ثباتها ، فنعيمها وبؤسها متحول متقلب ، وبذا يزول الشك الطارىء من كلام ابن

---

(١) الاستيعاب ١٣٣٥ ، الاصابة ٦٧٦/٥ ·

(٢) الموشح ص ١٠١ وانظر كذلك الشعر والشعراء ص ٢٣٧ ، والصناعتين ص ٤٣٤ ، والاصابة ٣٠٧/٣ ، وخزانة الأدب ٢٢١/٢ ·

حجر ، ثم إن البلبلة الفكرية واضحة فى قول ابن حجــر الذى يتمحل ليشايع زعما قائما فى نفســه فيفترض معتمدا فى افتراضــه على الحــدس والتخمين ، اللذين لا ينصران قضية ، وهل هناك ما يمنع أن يكون لبيد قد قال هــــذا الشعر فى الاسلام ؟!

انه الاضطراب والحيرة اللذان وقع تحت طائلتها أيضا ابن قتيبة ، الذى ذكر هذه الأبيات فيما يستجاد من شعر لبيد ، ووقف عند قوله :

وكل امــرىء يوما ســـيعلم ســـعيه
اذا كشـــــفت عند الالـــه المحاصـــل

قائلا : ان هذا البيت يدل على انه قيل فى الاسلام ، فهو شبيه بقول الله تبـــارك وتعالى : « وحصـــل ما فى الصدور » ثم غلب عليه مسايرة الزعم الشـــائع فاضطرب ـ كما اضطرب غيره ـ وقال : أو كان لبيد قبل اسلامه يؤمن بالبعث والحساب ولعل البيت منحول !! (١) وتقرير ابن قتيبة الأول يدل على الصدق النفسى ، ورأيه الذى يعتقده فيما بينه وبين نفسه ، وعندما ودع هذا الاعتقـــــاد الى الزعم الشائع اضعف افتراضه بهذا الاســلوب التمريضى ، الذى استعمل فيه « أو » و « لعل » .

ولما كان من الثابت نسبة هذه الأبيات للبيد ، وعــدم نحلها له ـ بما ســـــقنا من أدلة ـ فان حقيقة مهمة تنجلى أمام أعيننـــا مفادها : أن للبيد شعره الاســـلامى ، وأن اضطراب أصحـاب الزعم الذى لا نقبله وحيرتهم وبلبلتهم لتؤكد هذه الحقيقة وتدمغ زعمهم . وهؤلاء عندما قالوا: ان لبيدا أكمل فى الاسلام قصائد سبق نظمه لها ، يكونون

(١) الشعر والشعراء ٢٧٩/١ ـ ٢٨٠ .

قد أقروا بهـــذه الحقيقة واذعنوا لهـــذا الأمر من حيث لا يحتسبون .

خامسها : أننى لست مطمئنا كل الاطمئنان الى قصة لبيد مع المغيرة بن شعبة ، لأنها تصور عمر بن الخطاب رضى الله عنه متجهما فى وجه الشعراء ، جاحدا الشعر ، واقفا من الشعر والشعراء موقفا عدائيا ، مع ما هو معروف عنه من مقامات فى نقد الشعر والمفاضلة بين الشـــعراء ، وكونه كان من أشد الناس بصرا به ومعرفة بأوابده وحباله، « وكان لا يكاد يعرض له أمر الا أنشد فيه بيت شعر » (١) وكان - من هــذا المنطلق - يحث الناس عليـــه ويأمرهم بروايته ، وقد أثر عنه قوله : « علموا أولادكم الســـباحة ، ومروهم فليثبتوا على ظهور الخيل ، ورووهم الشعر تعذب ألسنتهم » وكتب إلى أبى موسى الأشعرى : « مـــر من قبلك بتعلم الشعر ، فانه يدل على معالى الاخلاق ، وصـــواب الرأى ، ومعرفة الانساب » (٢) فالتباين واضح !!

ثم انى لا استسيغ ان يحط عمر العادل الملهم منعطاء الأغلب - الذى يقتات منه هو واسرته - لمجرد قوله الشعر، ولا يشفع رده عليه بعد أن راجعه الأغلب بقولـــه : تنقص عطائى أن أطعتك ؟! مرة أخرى .

لعل عمر رضى الله عنه زاد فى عطاء لبيد الخمســمائة ليعينه على كرمه الذى قطعه على نفسه ، تأصيلا من عمر لقيمة الكرم فى نفوس الناس ، فالصق الرواة الزيادة بهذه القصة ! ومن الجائز ان تكون هذه القصة صحيحة ، ويكون لبيد بذكائه ولوذعيته قد عرف أن المغيرة يمتحنه ، وأدرك سر هذا الامتحان ، فعرف كيف يجيب ، وجوابـــه لا يعنى أنه توقف عن نظم الشعر ، ولكنه يعنى أنه مهما وصل من

---

(١) البيان والتبيين ٢٤١/١ .
(٢) انظر العقد الفريد ٢٨١/٥ .

مستوى فالقرآن أجل وأرفع ، ولا تعارض بين زهد لبيد وانصرافه الى القرآن ، وبين قول الشعر وتسجيل عواطفه الدينية وتجاربه فى هذه الحقبة من عمره ! وأن اعراضه عن قول الشعر فى الاسلام يعنى أنه لم يتخذه صناعة ، ولم يكثر من انشائه وانشاده بسبب الاسلام وشدة اهتمامه بالقرآن ، وبحكم السن ، اذ كان قد تخطى – فى الوقت ذاته – المائة عام بأعوام ، واذن تكون معاقبة عمر للاغلب – ان صحت القصة – قد جاءت من وجه آخر كان عمر عليه أشد حرصا ، وبه أكثر وجدا ، ذاك هو اغراء الناس بالقرآن وحملهم على تفهم اسراره واستظهار آياته ، فكان صنيع عمر مظاهرة واضحة لما تقدم به لبيد ، لكيلا يكون القائم بالأمر والخليفة المتبع أقل حفاظا على دعامة الدين ممن استرعوه أمرهم ، واتخذوه اماما لهم . وان مما يدل على أن لبيدا لم يتوقف عن الشعر ، ولم يعى عن قرضه فى عهد عمر أرجوزته التى سجل فيها حادث عرض الخيل على « سلمان بن ربيعة الباهلى » – قاضى الكوفة لعمر – ليحكم بعتقها أو هجنتها ، وكان سلمان قد دعا بطست من ماء فوضعت بالارض ، ثم قدم الخيل فرسا فرسا ، فما ثنى منها سنبكه فشرب جعله هجينا – لقصر عنقه – وما شرب ولم يثن سنبكه جعله عتيقا – لطول عنقه – فقال لبيد فى ذلك أرجوزته التى منها :

من يبسط الله عليه اصبعا
بالخير والشر بأى أولعا
يملأ له منه ذنوبا مترعا
وقد أباد ارما وتبعا
أنت جعلت الباهلى يفنعا
فينا فأمسى ماجدا ممنعا
وحق من رفعته أن يرفعا
وكان شيخا باهليا أضلعا (١)

---

(١) الاستيعاب ٥٨٣/٣ .

وهى القصيدة الثامنة والخمسون فى الديوان ، وفيها تتألق الروح الدينية الاسلامية ، غير أن الدكتور احسان عباس – محقق الديوان – يفترض فى مقدمة الديوان أن شاعرية لبيد توقفت فى أواخر عهد عمر ، وأنه حين ساله شعرا كان قد توقف عن قوله الى الأبد (١) وهذا القول يتناقض وقصيدتى الرجل اللتين قالهما وهو يستشعر دنو الموت ، ويحس بزحف رسل الحمام عليه ، واللتين اثبتهما محقق الديوان تحت رقم (٢٨) ورقم (٤٩) (٢) ٠

وأما موقف لبيد من والى عثمان بن عفان رضى الله عنه ، الوليد بن عقبة ، وقوله لابنته الذى يأسف فيه علىأنه أصبح حينئذ يعيا عن قول الشعر : « لعمرى لقد عشت برهة وما أعيا بجواب شاعر » فليس معنى ذلك أن لبيدا كان قد أجبل ، وانما معناه أن ملكة الشعر لم تعد تواكبه بالقوافى، وتسعفه بالمعانى كما كانت ، بسبب طعنه فى السن وتقدم الزمن به ، فلم يعد حبل القوافى فى يديه ، يرخيه أينما شاء وكيف شاء اذ ند عنه وشرد منه ، فلم يكد يحل بساحته، ويتألق فى سماء خياله الشعرى الا فى القليل ٠

وليس هذا ببدع أو غريب ، وانما الغريب ان تتدفق ينابيعه الشعرية بعدما تقدمت به السنون وصدع عنه الشباب مثلما كانت أيام فتوته واكتمال شبابه ، ان الصحة العامة والمواهب الجسدية يعتريها الاعتلال بسبب الشيب ، فلم لا يعترى هذا الاعتلال المواهب الفنية بسبب الشيب ؟!!

ان الشاعر السوى كما أثبت الواقع والدراسات النفسية يقدر على قرض الشعر فى وقت دون وقت ، وقد أدرك ابن

---

(١) مقدمة الديوان ص ٢٩ ٠

(٢) الديوان ص ٢١٣ ، ٣٢٢ ٠

عـ.ـيه هذه الظاهرة ، وقرنها بحالات جسـدية ونفسـية فى قوله : « ولا تعرف لذلك علة الا من عارض يعـرض على الغريزة من سوء غذاء أو خاطر غم » (١) وهل يعرض على الغريزة عارض أقوى وأشد من الشيب والاكتهال ؟!!

وغير خاف أثر التكوين الخلقى فى تكوين الشعر (٢) وقد أدرك بعض الشعراء أثر الكد الذهنى والفتور النفسى ، كالفرزدق الذى يقول : « أنا أشعر تميم عنـد تميم ، وربما أتت على ساعة ونزع ضرس أهون على من قول بيت » (٣) فاذا كان الفرزدق الذى لم يكتهل بعـد ، والذى لم يعيش ماء الحيـاة ورواءها من وجهه المشـيب تتقرر لديه هـذه الحقيقة ، فكيف بلبيد الذى أخنى عليه الدهر ، وثقلت على صدره الحياة ؟!!

ان هذا يعنى أنه ما كان قد أجبـل ، وانما يعنى أن غريزته ما كانت تسعفه فى كل وقت ألح عليها فيـه ، فاذا كانت تسعفه فى وقت ، فانهـا كانت تأبى عليه فى وقت آخر .

ولعل هـذا الوقت الذى طلب فيه من ابنته أن تجيب الوليد بن عقبة كان من أوقات امتناع الغريزة عليه !!

ولعل مرد عى لبيد عن اجابة الوليد « الى الأنفة من شكر رجل لم يكن طيب الذكر ، وقد عرف عنه ما عرف من تهمة شرب الخمر ، فمدح لبيد اياه على يده عنده قد تعلى شأن الوليد وتحرج لبيدا ، ولبيد لم يكن مداحا فى الجاهلية حتى يتهـافت على المدح فى الاسـلام ، وفى حال من

---

(١) الشعر والشعراء ١/٩ .

(٢) انظر كتاب من الوجهـة النفسية فى دراسـة الأدب ونقده ص ٣٥ .

(٣) الشعر والشعراء ١/٨١ .

تزهده !! » (١) ولم أر أحد نسب هذه المدحة للبيد الا ابن السكيت (٢) ٠

ان لبيدا فى الاســـلام ـ كما يتراءى لى ـ لم يــكن بحال من شــعراء المحــافل ، ولا مادا أطنابه فى المديح والاطراء ، ولاضاربا بباع فى الاقذاع والهجــاء ، ومن ثم روج عنه ما روج واختلق عليه ما لم يكن ٠

وبعد : فقد تنفس الصــبح عن حقيقة جلية هى : أن لبيدا العامرى شــاعر مخضرم ، وأنه ظل يقول الشــعر حتى ساعة الاحتضار ، وأنه ليس صحيحا أنه لم يقل فى الاسلام الا بيتا واحدا ، وان أصحاب هذا الزعم قــد اسرفوا على انفسهم فيه ، وأن لبيدا لم يتخذ الشعر فى الاسلام صناعة ، وأنه قد قل شــعره بخمود قريحته بســبب هــذا العمر الطويل ٠

* * *

(١) الشعر فى الاسلام د٠ الغول الطبعة الثانية ص ٦٧ ٠
(٢) اصلاح المنطق تحقيق شاكر وهارون ص ١٢٤ ٠

شعر لبيد فى الاسلام

ثبت لدينا بالأدلة المادية والاستنباطية والأحـــداث التاريخية ومناسباتها أن للبيد شعرا اسلاميا ، يمثل المرحلة الثانية من شعره ، وهذه الحقيقة نهضت على أنقاض الزعم القائل : بأن لبيدا لم يقل فى الاسلام الا بيتا واحدا .

وشعر لبيد فى هـــذه الفترة الاســـلامية لون جديد مساير للاسلام وثورته الحضـــارية ،وبعيد كل البعـــد عن النهج التقليدى الذى نهجه فى الجاهلية ، وان احتفظ فى ظلال الاسلام بالمستوى الشعرى ، فلم يضعف شـعره آنئذ كما ضعف شـــعر غيره ، ولم يترد فى مواجهة الينـــابيع الثقافية الجديدة كمـــا تردى غيره ، وتحولت القصـــيدة الاسلامية عنده ــ فى شكلها ومضمونها وأســـلوبها ــ الى صـــورة جديدة ــ سوف تكشف عنها وتجليها ــ ان شـــاء الله ــ الصحائف التالية من هذه الدراسة ــ فى الوقت الذىلم يهبط فيه المستوى الفنى لهذا الشعر ، وهذا بلاريب راجع الى تغلغل الاســـلام فى ضميره ،واســـتقرار مبادئه فى أعماقه ، والذين يقرأون شعره فى هذه الفترة يشـــعرون بصدق مشاعره وعمق تدينه ، « وان صدق مشاعره الدينية هو الذى ساعده على أن يحتفظ بمستوى فنه الجاهلى فى شعره الاسلامى » (١) .

ومن اللائق أن أشير فى عجالة الى بعض جوانب هذا التحول :

فقد بدا ذلك واضحا فى أن القصيدة عنده قد استحالت ــ فى الغـــالب ــ الى المقطوعة ذات الموضـــوع الواحد ، واستحالت المقدمة الطللية الى تسبيح وحمد ، واســـتحال

---

(١) الشعر الجاهلى د. سيد حنفى ص ٢٥٨ .

الفخر الذى كان يملأ شعره ، ويملك نفسه ، الى انابة الى الله ، ووجل من يوم الحساب ، واستحالت ألفاظه اللغوية الحوشية الى لفظ رقيق مهذب ، جعل ابن سلام يقول فيه : « كان عذب المنطق ، رقيق حواشى الكلام ، وكان مسلما رجل صدق » (١) .

وهذه العلاقة بين الدين والشعر هى التى جعلت أبا عمرو بن العلاء يقول فيه : « ما أحد أحب الى شعرا من لبيد ، لذكره الله عز وجل ، ولاسلامه ولذكره الدين والخير » (٢) .

لقد استقى الشاعر من ينابيع القرآن الكريم والحديث الشريف ، ووضح هذا الأثر فى شعره ، فانسابت فيه أصداء وظلال المعانى الاسلامية ، وجاء والروح الاسلامية ماثلة فى تضاعيف أبياته ، كما فى قوله :

لله نافلة الأجل الأفضل
ولـه العلا وأثيث كل مؤثل
لا يستطيع الناس محو كتابه
أنى وليس قضاؤه بمبدل

الى أن يقول :

بل كل سعيك باطل الا التقى
فاذا انقضى شىء كأن لم تفعل (٣)

ففى تضاعيف هذا الشعر تبرز الروح الاسلامية بوضوح ، وهكذا شعر لبيد الاسلامى يفيض بالخوف من الله الذى أحصى كل شىء فى كتاب ، والوجل من يوم القيامة ، والحديث عن التقوى والأبرار ، والزهد فى الحياة ، واليقين من حتمية الموت ، والموعظة والدعوة الى

---

(١) طبقات الشعراء ص ٤٨ .
(٢) الموشح ص ٧١ .
(٣) الديوان ٢٧١ وما بعدها .

صالح الأعمال ، والتذكير بتاريخ السابقين ، الى جانب فن « الرثاء » الذى برع فيه كل البراعة ، واحتفال شعر لبيد الاسلامى بهذه الأقباس الاسلامية على هذه الصورة يوضح الفرق بينه وبين شعر غيره من الشعراء المخضرمين المعاصرين له ، أمثال : الحطيئة ، والنابغة الجعدى ، وكعب ابن زهير ، والعباس بن مرداس وغيرهم ، فان شعرهم لم يكن متأثرا بالاسلام ذلك التأثر الواضح فى شعر لبيد ، فاذا استثنينا القليل من شعر هؤلاء الذى يحمل فى تضاعيفه أقباسا من تعاليم الاسلام ، فان الكثرة الكاثرة من شعرهم الذى نظموه فى الاسلام لم يكن بينه وبين الشعر الجاهلى فرق واضح ، ذلك أن أثر الاسلام فى شعر شعراء هذه الفترة لم يظهر واضحا الا عند شعراء مدرسة المدينة : حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، هؤلاء الذين حملوا راية النضال ضد شعراء مدرسة مكة من أمثال : عبد الله بن الزبعرى ، وضرار بن الخطاب ، وأبى سفيان ابن الحارث وغيرهم (١) .

وليس شعر لبيد فى الاسلام بقليل ، فقد تبين لنا من خلال دراستنا ونظرنا المعن فى ديوانه أن له أكثر من عشرين قصيدة ومقطوعة وأرجوزة ، تؤكد جميعها — فى شكلها وبنائها ومواضيعها ومناسباتها — أن لبيدا نظمها فى ظلال الاسلام ، وهى :

مراثيه فى عمه أبى براء — عامر بن مالك — وهى القصيدة الأولى فى الديوان ، والتى وصف فيها أبا براء بذى الفضل فى قوله :

وبعد أبى عمرو وذى الفضل عامر
وبعد المرجى عروة الخير للكرب

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى : شعر المخضرمين واثر الاسلام فيه د. يحيى الجبورى ص ٥٧ وما بعدها .

والقصيدة الثامنة التى يرثى فيها الى جانب عمه أبطال قومه وابن عمه عامر بن الطفيل ٠

وأرجوزته الميمية التى مطلعها :

« يا عامر بن مالك يا عما
أهلكت عما وأعشت عما »

وأرجوزته الحائية التى مطلعها :

« قوما تجوبان مع الانواح
فى مأتم مهجر الرواح »(١)

مراثيه فى أربد أخيه لأمه : وهى عشر قصائد وأرجوزة واحدة ، تمثل القسم الثانى فى الديوان ٠ قصيدته فى الحنين الى قومه حين ذهبوا مع جيش المسلمين الفاتح فى العراق والشام ، وقد قعدت بلبيد سنه فلم يخرج مع المجاهدين فى سبيل الله ، وأولها :

انما يحفظ التقى الأبرار
والى الله يستقر القرار

ومنها :

وأرى ال عامر ودعونى
غير قوم أفراسهم أمهار

ولا ميتاه الوعظيتان وهما : القصيدة السادسة والثلاثون ، والقصيدة التاسعة والثلاثون فى الديوان ، ومطلع الأولى :

---

(١) الديوان ص ١ ، ٤٦ ، ٣٣٢ ، ٣٤٥ ٠

ألا تسألان المرء ماذا يحـاول
أنحب فيقضى أم ضلال وباطل؟

ومطلع الثانية :

للـه نافلة الأجـل الأفضـل
وله العـلا وأثيث كل مؤثل

وفيهما اطلالة مؤرخ واعظ حكيم على تاريخ السابقين من ذوى الشأن والقوة والبـأس . وأرجوزته فى سلمان البـاهلى قاضى الـكوفة لعمر بن الخطـاب رضى الله عنه (١) .

ومقطوعته التى خاطب بها الرسول صـلى الله عليه وسلم حين أجدب قوم لبيد وأمحلوا(٢) ، ووصيتاه وهو يجود بنفسه لابنتيه – بر وأسماء – وأبى حنيف ابنه ، والوصـية الأولى لابنتيه هى القصيدة الثامنة والعشرون ، والثـانية لأبى حنيف هى القصيدة التاسعة والأربعون فى الديوان .

وللبيد الى جوار هذه القصـائد والأراجيز قصـائد ومقطوعات اسلامية أخرى تعج بالروح الاسلامية ، وتفيض بالمشاعر الدينية ، وتسـتلهم الذكر الحكيم ، كالقصـيدة الخامسة التى يتحدث فيها عن نفسه التى سمئت الحياة ، والتى مطلعها :

قضى الأمور وأنجـز الموعود
واللـه ربى ماجـد محمـود

والقصيدة السادسة التى استهلها بقوله :

حمـدت اللـه واللـه الحميـد
ولله المؤثـل والعديـد

---

(١) الديوان ص ٣٣٧ .
(٢) الديوان ص ٢٧٧ .

كذلك مما تجدر الاشارة اليه ، أن عودة لبيد الى شعره الجاهلى فى الاسلام يهذبه ويشذبه ، ويبدل فى أبيـاته ، ويزيد فيها ، ويغير فى معانيه ، أمر غير بعيد ، وقد أدرك ذلك ابن حجر العسقلانى ، وهو يوجه الرأى القائل بهجـر لبيد الشعر فى الاسـلام ، فقال : « نعم ويحتمل أن يكون زاد هذا البيت بخصوصه بعد أن أسـلم ، ويكون مراد من قال : انه لم ينظم شـعرا منذ أسلم ، يريد شـعرا كاملا لا تكميلا لقصيدة سبق نظمه لها » (١) . والعبارة الأخيرة من نص صاحب الاصابة هى التى تعنينا هنا ، لأنها تشير الى أن لبيدا عاد الى شـعره الجاهلى وزاد فيه أبيـاتا دينية . غير أننا لا نسلم بهذه الاشارة تسليما مطلقا ، لأنها تتعارض مع هذا الكم الهائل من شعر لبيد الذى نظمه فى الاسلام ، والذى كشفناعنه سلفا ، ولأننا لانكاد نلمح صداها الا فى قصيدة واحدة هى التى مطلعها : (٢)

كبيشة حلت بعـد عهدك عاقلا
وكانت له خبلا على النأى خابلا

فقد بدأهـا بالغزل ، وانتقـل الى وصف الحمـار الوحشى ، واستطرد الى الحديث عن كلاب الصيد ، ثم يعود على ما بدأ فيتحدث عن المرأة التى تنكرت له حين اشتعل رأسه شـيبا ،وهبت تلومه على كفه المثقوب ، وهنا أقحم لبيد هذه الأبيات :

رأيت التقى والجـود خير تجـارة
رباحا اذا ما المرء أصـبح ثاقـلا

وهل هـو الا ما ابتنى فى حيـاته
اذا قذفوا فـوق الضريح الجنـادلا

---

(١) الاصابة ٣/٣٠٨ .
(٢) الديوان ص ٢٣٢ .

وأثنوا عليه بالذى كان عنده
وعض عليه العائدات الأناملا (١)

ثم ينتقل بعدها الى وصف الناقة · والقصيدة على هذا النمط لاسبيل الى الشك فى كونها جاهلية ، « واذا تأملنا فى هذه الأبيات نجد أمرين ظاهرين : الأول : أنها مقحمة فى القصيدة غريبة عنها ، فقد جاءت حيث لا يقتضيها السياق · والثانى : أن فيها من المعانى الاسلامية مما لم يعهد عند الجاهليين ، وأن القارىء ليرى أصداء لآيات الله البينات فى قوله :

رأيت التقى والحمد خير تجارة
رباحا اذا ما المرء أصبح ثاقلا

فالتقى والحمد من الألفاظ الاسلامية ، والبيت يذكر بقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » وقوله تعالى :

« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » والبيت الثانى :

وهل هو الا ما ابتنى فى حياته
اذا قذفوا فوق الضريح الجنادلا

يعيد فى الأذهان الآية الكريمة « وأن ليس للانسان الا ما سعى » (١) ·

وعبثا تحاول العثور على قصيدة أخرى تبرز هذه

---

(١) الديوان ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ·

(٢) انظر د· يحيى الجبورى فى كتابه : لبيد بن ربيعة ص ٣٩٤ وما بعدها ·

الظاهرة التى رأيناها فى هذه اللامية ، والذين لا يقرون هذه الحقيقة لا ينصفون الرجل .

وعلى الرغم من ضآلة حجم هذه الفكرة فى شعر لبيد فاننى ما أردت أغفالها ، لتتلاحم أطراف القضية ، وليتقرر لدى القارىء بأمانة ودقة جميع شعر لبيد الذى قاله فى الاسلام .

ولا ريب أن هذا الكم الهائل من القصائد والمقطوعات والآراجيز التى نظمها الشاعر فى حياته فى الاسلام داحض للدعوى الشائعة القائلة : بأن لبيدا لم يقل فى الاسلام الا بيتا واحدا ، اختلف أصحاب هذه الدعوى حوله ، بل انهم شككوا فى نسبة إلبيت الى لبيد - كما أوضحنا سلفا .

بيد أننا نستطيع أن نؤكد على أن شاعرنا لم يكن فى ظلال الاسلام من شعراء المحافل ، كما كان حسان بن ثابت مثلا ، اذ كان قد قصر شاعريته وفنه على نفسه ، يصور خلجاتها ، ويمتح أغوارها ، ويتلمس أحاسيسها ، سواء أكانت دينية أم تفجعية ، ولعل ذلك ما حدا بهؤلاء الزاعمين الى دعواهم هذه ومشايعتها .

وهيهات لدعواهم أن تستمر ، فها هو ذا ضوء الصبح قد انبلج ، وتنفست الحقيقة فى عالم الضياء .

أبرز فنون شعر لبيد الاسلامى :

تناول لبيد فى شعره الاسلامى جملة أغراض ، كان من أبرزها : فن الرثاء وفن الحكمة .

فأما الرثاء فقد أكثر منه وأبدع فيه ، حتى ليعدمن أبرع

شعرائه وأشهرهم ، فى الوقت الذى تعد فيه الخنساء من أشهر شواعر هذا الفن ، واذا كانت الخنساء قد بكت أخاها صخرا بكاء مرا حزينا ، وذاع اسم صخر بسبب ما نظمته فيه ، فان لبيدا بكى أخاه لأمه « أربد » بكاء مرا حزينا ، وذاع اسم أربد ببكاء لبيد ، وتأسى ببكاء لبيد أو بكاء الخنساء من بكى ذويه من المتأخرين ، فهذا الحسين بن عبد الله البغدادى يقول فى رثاء أخيه أحمد :

غاية الحزن والسرور القضاء
مالحى من بعد ميت بقاء

لا لبيد بأربد ما حزنا
وسلت صخرا الفتى الخنساء (١)

ويتشبه الصنوبرى فى بكائه بلبيد فى بكائه فيقول :

سأرثيك ما حنت حمامة أيكة
كأنى لبيد أو كأنك أربد (٢)

وكذلك فعل ابن مقبل فقال :

وانا واياكم وموعد بيننا
كمثل لبيد يوم زايل أربدا (٣)

وان حرارة الرثاء وشدة الحزن وكثرة التفجع والتهاب العاطفة متوازنة عند كل من الخنساء ولبيد ، واذا كان ثمت فرق بينهما فهو الفرق بين جزع المرأة وتجلد الرجل ،

---

(١) معجم البلدان لياقوت ٤٥/١٤ .
(٢) شرح المضنون به على غير اهله ص ٥١٠ عن كتاب : لبيد ابن ربيعة للجبورى ص ٣٠٧ .
(٣) ديوان ابن مقبل ص ٦٤ تحقيق عزت حسن .

فالنساء « أكثر من الرجال ذكرا للوعة ، وأكثر حديثا عن البكاء والدموع والفجيعة ، لأن ضعفهن وأنوثتهن وسرعة انفعالهن كل أولئك يتجلى فى تصويرهن للترح بالحديث عن البكاء » (١) . فالخنساء تنوح وتندب من منطلق هذه الأنوثة ، وتبكى فى أخيها العطف والحنان والرحمة والكرم والرجولة ، ولبيد الرجل يتحسر ويبكى فى أخيه البطولة والنجدة والسخاء ، ويرى فيه الفارس البطل والقائد القدوة .

ومن هنا ذهب الدكتور طه حسين الى تقديم لبيد فى هذا الفن على الخنساء ، والى العجب من هؤلاء الذين يقدمون الخنساء على لبيد ، فى قوله : « ولست أدرى كيف يمكن أن تقدم الخنساء عليه فى رثائها ، وهو عندى أبرع منها فى تصوير الحزن وصب اليأس فى القلوب صبا من غير ضعف ولا وهن » (٢) . وهذا حق !! فلبيد فى حزنه متجلد صبور عاقل ، وحزنه حزن حكيم يتدبر أرزاء الأقدمين من ملوك وعظماء .

والرثاء شغل حيزا كبيرا من شعر لبيد ، وجميع مراثيه فى أهله وعشيرته ، وليس له فى غيرهم رثاء ، حتى النعمان بن المنذر - كما أفصحت عن ذلك سلفا - .

وأجود رثاء لبيد وأصدقه عاطفة هو مارثى فيه أخاه أربد بن قيس بن جزء الذى كان يحبه لبيد حبا جما ، ويعجب به أيما اعجاب ، ولعل مرد ذلك الى أن أربد كان يرعى لبيدا ويعطف عليه ، كما كان يصنع معه عمه أبو براء ، اذ كان لبيد قد فقد أباه وهو صبى صغير ، ومن ثم تعلق بأربد - أخيه الأكبر - وأعجب به كما تعلق بعمه وأعجب به ، يدل على ذلك قول لبيد فى أربد :

---

(١) المرأة فى الشعر الجاهلى ص ٤٨٩ .
(٢) حديث الاربعاء ٥٠/١ .

فهـــل نبئت عن أخوين داما
على الأيـــام الا ابنى شـــمام

وكنت امامنـــا ولنـــا نظـــاما
وكان الجـزع يحفظ بالنظـــام

وليس الناس بعدك فى نقيـــر
ولاهـــم غير أصـــداء وهـــام

فهو فى بيته الأخيـــر يستهين بالنـــاس بعد أربد ، ولا يرى فيهم خيرا ، فقد مضى الخيرون بمضـــيه ، ويلح على هذا المعنى فى قوله :

ذهب الذين يعـــاش فى أكنـــافهم
وبقيت فى خلـــف كجلـــد الأجـــرب

يتـــــأكلون مغـــــالة وخيـــانة
ويعـــاب قائلهـــم وان لـــم يشـــغب

يا أربد الخيـــر الـــكريم جـــدوده
خليتنى أمشـــى بقـــرن أعضـــب

ويذكر فضائله ومناقبه ، ويذم الدهر الذى أنحى عليه بهذا الرزء فى قوله :

عميـــد أناس قـــد أتى الدهـــر دونـــه
وخطـــوا له يوما من الأرض مضـــجعا

لعمـــر أبيـــك الخيـــر يا ابنـــة أربـــد
لقد شـــفنى حـــزن أصـــاب فأوجعـــا

فـــراق أخ كان الحبيب ففـــاتنى
وولـــى بـــه ريب المنـــون فاســـرعا

فعينـــى اذ أودى الفـــــراق بأربـــد
فـلا تجمـــــدا أن تســـــتهلا فتدفعا

فتى عـــارف للحـق لا ينـــكر القـــرى
تـــرى رفـــده للضـــيف ملآن مترعـــا

لحـا اللـــه هـــذا الـــدهر انى رأيتـــه
بصــــيرا بمـا ســـاء ابن آدم مولعـــــا

ويطنب لبيد فى الحديث عن خصـــال أربد الخيرة ، كالشـــجاعة والكرم والنجدة والعفو والوفاء ، ولم يغـادر لبيد مكرمة أو فضيلة دون أن يعزوها لأربد ، على غرار :

فتى كـــان أمـــا كـــل شـــىء سألته
فيعطـــى وأمـــا كـــل ذنب فيغفـــر

و ..
ألا ذهب المحـــافظ والمحـــامى
وحـــامى ضـــيمنا يوم الخصــــام

و ..
ممقـــــر مـــر علـــى أعـــدائه
وعلـــى الأدنين حلـــو كالعســـل

و ..
اذا اقتصــــدوا فمقتصـــد أريب
وان جاروا ســـواء الحق جارا (١)

وهكذا يسترسل لبيد فى ذكر مناقب أربد وتفصـــيل مكارمه، حتى جمع له كل معـــانى المروءة التى يتمثلها فى الفارس العربى الكامل .

ومراثى لبيـــد فى أربد نوعان : نوع يحســـبه الرائى

---

(١) الديوان ص ٢٠٨ ، ١٥٣ ، ١٧٣ ، ١٦٧ ، ٢٠١ ، ١٩٧ .

رثاء جاهليـــا ، لخلوه من روح التدين ، وهو الذى نظمه حين كانت المصيبة فى أولها والنفوس جزعة متحمســـة ، والمشــاعر فياضـــة بالحزن والأسى ، وينهض على البكاء والاســتبكاء واللوعة والجزع ، وفيه يتحدث عن شــخص أربد ، وعن تخرقه فى الكرم وشرب الخمر والميسر وسائر صور الفتوة ، وقد أصــاب لبيد المحز والمفصل لأن التلميح الى النواحى الدينية قد كان يضـعف طبيعة الرثاء لشخص يقوم مجده عنده على المآثر الجــاهلية ، ومن ثم يتضـح الصدق الفنى فى هذا الرثاء .

ومما يؤكد هذا الصدق الفتى أن هذا النوع من الرثاء جاء مقطوعات ، خالية من الصنعة ، تدور حول الموضــوع ذاته لا تتعداه الى أفكار أخرى ، فما هى الا عواطف مكبوتة وحسرات وزفرات ينفثها الشاعر كيفما تسنى له فنه وسنح قريضـــه ، كالمقطوعة الســابعة عشرة والتاســعة عشرة والحادية والعشرين والثانية والعشرين والثالثة والعشرين والخامسة والعشرين فى الديوان .

أما النوع الثــانى فهو الذى نظمه بعد أن اســتقرت نفســه ، وكاد ينسى حزنه على أربد ، وكان قد أوغل فى الحياة الاسلامية ايغالا واضـحا ، فمبعثه الذكرى ومهيجه الحنين ، ومن هنا وشت قصائده التى نظمها فى هـــذه الآونة مسحة من الحزن ، وطبعتها الأفكار الناضجة الدالة على ســعة الأفق ، وتدبر الفكر ، حيث نظر فى المصــير المحتوم للانسان ، واعتبر بمصائر السابقين ، وتعزى عن فقد أخيه بأن الموت غاية الأحياء ، لقد حلت الحكمةوالتأمل والاعتبار محل اللوعة واليأس والبكاء ، وطالت القصائد ، وظهر فيها الاســتطراد ، كالقصــيدة الرابعة والعشرين والسادسة والعشرين والســابعة والعشرين ، هــذا وان الانسان المتأمل يستشعر من خلال ما يقرأ للبيد جلال الموت ورهبته :

فــلا تبعــدن أن المنيــة موعــد
عليـــك فدان للطـلوع وطـــالع

أعـــاذل مـــا يدريـــك الا تظنيـــا
اذا ارتحل الفتيـــان من هو راجـع

تبكى على اثر الشـباب الذى مضى
ألا ان أخـــدان الشـــباب الـــرعارع

أتجزع ممـــا أحدث الـــدهر بالفتى
وأى كريم لم تصـــبه القوارع (١)

وللبيد الى جانب هـــذا الرثاء رثاء لأهله وذوى قرباه وأبطال قومه ، الذين صور قبورهم وسط رياض تحفهـــا أزاهير ، وهى صـــورة حضرية ، اذ لم يقتصر على الدعاء لهم بالسقيا :

فشـــيعهم حمـــد وزان قبورهـــم
ســـرارة ريحـان بقاع منور (٢)

ويتأسى بالعظماء الذين مضـوا ، وعفى على ذكرهم الزمان :

وشـــمط بنى ماء الســـماء ومردهـــم
فهـــل بعدهم من خالـــد أو معمر ؟!

ومن فـــاد مـــن اخوانهـــم وبنيهـــم
كهـــول وشـــبان كجنـــة عبقـــر

مضـــوا ســلفا قصـــد الســـبيل عليهم
بهن من الســـلاف ليس بحيـــدر (٣)

(١) الديوان ١٧١ ، ١٧٢ .
(٢) الديوان ٥٣ .
(٣) الديوان ٥٤ .

ويسعى النـــاس الى حتوفهم متتـــابعين ، فنهايتهم محتومة ، وأيامهم فى الحياة معدودة :

هـــل النفس الا متعــة مســـتعارة
تعار فتـــأتى ربها فرط أشــهر (١)

وللبيد الى جانب هذا مراث فى عمـــه أبى براء - كشـفت عنها من قبـــل - والرثاء موضـــوع يتفق والروح الاسلامية ، فى الايمان بالقدر ، واتيان الموت على كل حى، والبعث والنشور وما يتبعهما من ثواب وعقاب ، وفى رثاء لبيد تبرز النزعة الانســانية والتــأملات العقلية ، والعبرة والموعظة ، والاستسلام لأمر الله ، ورثاؤه تعبير صادق عن مشاعره وترجمة أمينة لعواطفه وأحاسيسه .

وأما الحـــكمة : ففن قديم ، جاء نتيجة التجـــاريب الطويلة والنظر الثاقب والبصيرة النافذة والتفكير والتأمل فى قضايا الناس وحيواتهم وسعى الانسان وغايته ونهايته، ثم الاحساس الدقيق بالحياة.

ولبيد واحد من حكماء العرب كما أكد الجاحظ (٢) . فقد أجمع الرواة والمؤرخون على أنه كان مترويا متعقلا ، ذا رأى وحلم ، وهذا راجع الى نشأته وأسفاره ، ومجالس الملوك التى كان يغشاها ، وعمره الذى طال حتى ســـئم منه ، ومن هنا جاءت الحكمة فى شعر لبيد ناضجة متميزة عنها فى شـــعر غيره « فقد جمع فى شـــعره الحكمى كل الصفات التى ذكرها غيره ، وزاد عليها أن ســـما بها الى الله ، فاليه المرجع واليه يتوجه الناس وهو مصدر عزائهم، وأفكار لبيد واسعة الآفاق فقد عالج قضايا كبرى تتصـــل بالانسان ومصيره على حين نجد حكمة زهير حكمة مادية حسية فيها وعظ وارشاد ، أما أمية بن أبى الصلت فيصور ويخبر ويقص قصصـــا دينيا ، وعدى بن زيد بكاء متشائم

---

(١) الديوان ٥٧ .
(٢) أنظر البيان والتبين ١/٣٦٥ .

يائس ، وطرفة لاه يعب من اللذات ، ويهتبـل الفرص ، ويعيش ليومه بل لساعته » (١) .

وهذا السمو الفكرى والروحى أشد ما يكون تألقا فى شعره الاسلامى ، فلقد أشرب قلبه حب الايمان ، وتغلغـل الاسلام بقيمه ومبادئه فى أعمـاقه ، ومن ثم تأتى حكمه مدثرة بدثار النغمة الروحية الصافية ، فى سياق تسـبيح الله عز وجل وتوحيـده وذكر الـدين ، وتأتى للعبرة والموعظة من خلال الاطلالة على الماضين ، وتأتى فى رداء كئيب حزين حين يبكى موتاه ، وتأتى مثقلة بآلام السـنين المتطاولة ووطأتها فيها السأم والضجر والملل ، وبخاصـة حين يتحدث عن الشيخوخة وتطاول العمر « وهكذا تتوالى حكمه أبياتا شاردة وأمثالا يتمثل بها ، أو قصـائد طويلة النفس تزدحم فيها الآراء وتجارب السنن » (٢) .

ولشاعرنا قصيدتان طويلتان فاضتا بالحكمة ، أولاهما خلصت للعبرة والموعظة وتقرير ما يحمله بين جنبيـه من ايمان بالله وإذعان له ويقين بالبعث والحساب ، وثانيتهما فى الرثاء ، وربط الرثاء بالحـكمة ليس عجيـا ، فالرثاء يدعو الى التفـكير فى الحياة والموت وتذكر الماضـين الذاهبين ، وهو فى الأولى يرى أن الحياة سـعى باطل ، وفناء يعم الجميع ، وأن رغبات الانسان وحاجاته لا تنتهى ما عاش ، فى قوله : (٣)

ألا تسـألان المـرء ماذا يحـاول
أنحب فيقضى أم ضـلال وباطل ؟!

جبـائله مبثوثـة بسـبيله
ويفنى اذا مـا أخطـأته الحبـائل

---

(١) لبيد بن ربيعة للجبورى ص ٣٣٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٣٣ .
(٣) القصيدة فى الديوان ص ٢٥٤ وما بعدها .

اذا المــرء أســرى ليلــه ظن أنه
قضى عمــلا والمرء ما عاش عامــل

ويذكر الناس بأفاعيل الزمان بمن مضـوا ، ويدعوهم الى الاعتبار بهؤلاء الذين أخنى عليهم الدهر :

فقــولا لــه ان كــان يقســم مالــه
ألمــا يعظـك الدهــر أمك هــابل !!

فتعلــم أن لا أنت مــدرك ما مضــى
ولا أنت ممــا تحــذر النفس وائــل

فان أنت لم تصــدقك نفســك فانتسب
لعــلك تهــديك القــرون الأوائــل

فان لم تجــد من دون عدنان باقيــا
ودون معــد فلتزعــك العــواذل

ويتجه لبيد بمن يعظهم الى الله الذى يحصى أعمـال العباد ، ويذكرهم بأن كل نعيم فى هذه الحيــاة عرض زائل ، ولســوف يعلم كل امرىء يوم العرض على اللــه ما قدمت يداه :

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم
بلى : كلذى لب الى الله واســل

الا كل شــىء ما خــلا اللــه باطــل
وكــل نعيم لا محــالة زائــل

وكل أناس ســوف تدخــل بينهم
دويهية تصــفر منهــا الأنامــل

وكل امرىء يوما سـيعلم سـعيه
اذا كشـفت عند الاله المحاصـل

ولبيد فى القصيدة الثانية يقرر ما يقرره واقع الناس والحياة ، فالناس صائرون الى بلى ، وأن حـركة الوجود باقية مستمرة ، والأجيال تتعاقب ، والنجوم على اختلافها طلوعا وغروبا باقية ، والجبال ثابتة مستقرة فى مكانهـا لا تريم ، وما الانسـان الا شىء يسير ، كالشـهاب يشرق فيبهر الأبصار ، ثم لا يلبث أن يستحيل رمادا تذروه الريح، فما أشد غرور الانسان وحبه للبـاطل ، وثقته بمالا ينبغى أن يثق به فيقول (١) :

بلينا ومـا تبلى النجوم الطوالـع
وتبقى الجبال بعدنا و المصـانع

وقـد كنت فى أكناف جار مضـنة
ففـارقنى جـار بأربـد نافـع

فـلا جزع ان فرق الـدهر بيننـا
وكـل فتى يوما به الدهـر فاجع

فـلا أنا يأتينى طـريف بفرحـة
ولا أنا ممـا أحدث الدهـر جازع

وما النـاس الا كالديار وأهلهـا
بهـا يوم حلوها وغـدوا بلاقـع

وما المرء الا كالشـهاب وضـوئه
يحور رمادا بعـد اذ هو سـاطع

---

(١) القصيدة فى الديوان ص ١٦٨ وما بعدها .

وما البـر الا مضـــمرات من التقى
وما المـــال الا معمرات ودائـــع
وما المـــال والأهلون الا وديعـــة
ولابـــد يوما أن تـــرد الودائـــع

ويتـــأمل فى النـــاس وحيـــاتهم ، كيف يحيون ؟ وما نصيبهم من السعادة والشقاء ؟ وما مصيرهم اذا أرخى لهم حبل العمر ؟. ويصـور ثقل الشيخوخة ، ويســتحيل مؤرخا يخبر عن نفسه وعن الأمم البائدة لتجـــد موعظته صداها فى النفوس :

وما النـــاس الا عاملان : فعـــامل
يتبـــر مـــا يبنى وآخـــر رافـــع

فمنهـــم ســـعيد أخـــذ لنصـــيبه
ومنهـــم شـــقى بالمعيشـــة قانع

اليـــس ورائـــى ان تراخت منيتى
لوز العصا تحنى عليها الأصابع ؟!

أخبر اخبـــار القـــرون التى مضت
أدب كـــأنى كلمـــا قمت راكـــع

فأصـبحت مثل الســـيف غير جفنه
تقادم عهـد القين والنصـــل قاطع

فلا تبعـــدن ان المنيـــة موعـــد
عليك فـــدان للطلـــوع وطالـــع

فالمنية موعد للمرء يلقاها وتلقـاه ان عاجلا أو آجلا ، فلا يتعلل بالســـخف من أحاديث العـــائفين والقـــائفين والمستشيرين للحصى ، والمتحدثين عن الغيب ، فأمر هـذا كله باطل ، وأمر الغيب الى من استأثر بعلم الغيب :

لعمرك مـا تـدرى الضـوارب بالحصـى
ولا زاجـرات الطيـر مـا اللـه صـانع

سـلوهن ان كـذبتمونى متـى الفتـى
يـذوق المنـايا أو متـى الغيث واقـع ؟!

وللبيد نظرات فى سلوك الناس صائبة ، فهو يحض على الأخلاق ، ويدعو الى الذكر الحسـن ، فيحث على التقوى والحمد والبر والصلاح فى قوله :

رأيت التقى والجود خير تجـارة
رباحا اذا ما المـرء أصـبح ثاقلا

وهـل هو الا ما ابتنى فى حيـاته
اذا قذفوا فـوق الضريح الجنـادلا

وأثنوا عليـه بالـذى كان عنـده
وعض عليـه العـائدات الأناملا

ويقرر أن السعيد حقا من طهر ساحته من العيوب :

أكرمت عرضى أن ينـال بنجـوة
ان البـرىء من الهنـات سـعيد

وأن قمة السعادة فى تقوى الله :

فان اللـه نافلـة تقـاه
ولا يقتالهـا الا سـعيد

وأن الحياة تهدم كل طريف وتبلى كل جديد :

وأبوك بسـر لا يفند عمـره
والى بلى مـا يرجعن جديـد

وأن الانسان ضـــعيف ، والدهر قوى ، تمضى الأيام وتأتى ، والانسان يضعف ويهزل :

وأراه يأتى مثـــل يوم لقيتـــه
لم ينصرم وضـعفت وهو شديد

وأن الانسان ينبغى أن يكون وفيـا ، يكافىء النـــاس بمثل ماكوفىء :

فاذا جوزيت قرضـــا فاجزه
انما يجزى الفتى ليس الجمــل

وان يكون المرء ماضى العزيمة قوى الارادة ، لا يطاوع شـــهوات النفس فتقعــد به دون آماله ، وأن يتـــزود من التقوى :

واكـــذب النفـــس اذا حدثتهـــا
ان صـــدق النفس يزرى بالأمـــل

غيـــر أن لا تكذبنهـــا فى التقـــى
واخزهـــا بالبـــر لله الأجـــل (١)

وللبيد الى جانب هذا كله فى ظلال الاسلام أمثال حفـل بها شعره ، يضربها تارة ويصوغ حكما تجرى مجرى الأمثال تارة أخـــرى ، ومن ذلك قولهم : « طال الأبــد على لبد » وقولهم : « مخالب تنسر جلد الأعزل » (٢) . فقد عمـــد لبيد اليهما وحكاهما فى قوله : (٣)

---

(١) الـــديوان ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ وص ٣٧ ، ٣٨ وص ٣٥ ، ٣٦ وص ١٧٩ ، ١٨٠ .
(٢) مجمع الامثال ٤٢٩/١ ، ٣١٦/٢ .
(٣) الديوان ص ٢٧٤ .

ولقـــد جرى لبـــد فادرك جـــريه
ريب الـــزمان وكان غيــر مثقـــل

لمــا رأى لبـد النســـور تطـــايرت
رفـــع القوادم كالفقيــر الاعـــزل

ومن حكمه التى جرت مجرى الأمثال قوله : ان الطالب الحمد مشترى ٠

وقوله :

ان البرىء من الهنات سعيد

وقوله :

والحق يعرفه ذوو الألباب

وقوله :

انما ينجح أصحاب العمل

وقوله :

انما يجزى الفتى ليس الجمل

والحكمة فى شعر لبيد الاسلامى تتسم بسمات أبرزها :

١ - ذيوع الاتجاه الدينى فى تضاعيفها ، هذا الاتجاه المتمثل فى تســـبيحه لله عز وجل وتقديســـه وتوحيده ، وبيان قدرته وآلاته ونعمائه ، وأوبة النفوس اليه ، كمـــا فى قوله :

انمـــا يحفظ التقى الأبـــرار
والى اللـــه يســـتقر القـــرار

والى اللـــه ترجعون وعنـــــد
اللـه ورد الأمـــور والاصـــدار

كل شىء أحصى كتابا وعلمـــا
ولـــديه تجلـــت الأســـرار

وقوله :

ان تقـــوى ربنـــا خير نفـــل
وبـــاذن اللــه ريثى وعجـــل

أحمـــــد اللـــــه فلانــد لــه
بيـــديه الخيـــر ما شـــاء فعـــل

من هداه ســـبل الخير اهتدى
ناعم البـــال ومن شـــاء أضـــل

٢ ـ الاستفاضة فى فلسفة الفناء وتربص المنايا بالانسان، والزمان الذى ضاق بغدره ، والأيام وما تخبئه للناس من بؤس وشقاء ، فقد أيقن أن الناس سائرون زرافات ووحدانا نحو الفنـــاء يتتـــابعون ، وأنهم مهمـــا كثروا فان الموت يتخطفهم ، وسيغدون عما قريب قلة ، على نحو قوله :

فهـــون ما ألقى وان كنت مثبتـــا
يقينى بأن لاحى ينجـــو من العطب

وقوله :

كـــل بنـــى حـــرة مصـــيرهم
قـــل وان أكثـــرت مـــن العـــدد

ان يغبطوا يهبطـــوا وان أمـــروا
يومـــا يصـــيروا للهلك والنـــكد

وقوله فى أربد :

فاعتافه ريب البرية اذ رأى أن لا خلودا

وقوله :

ويمضون أرسالا ونخلف بعدهم
كما ضم أخرى التاليات المشايع

وقوله :

لحا الله هذا الدهر انى رأيته
بصيرا بما ساء ابن آدم مولعا

وقوله :

وانا قد يرى ما نحن فيه
ونسحر بالشراب وبالطعام
كما سحرت به ارم وعاد
فأضحوا مثل أحلام النيام (١)

٣ ـ الاطلالة على تاريخ الماضين من ملوك وعظماء وأبطال وأمم أبادهم الدهر ، وفعل بهم الزمان أفاعيله ، وعفت على آثارهم السنون ، وغاية لبيد من ذلك الوصول الى النتيجة الحتمية وهى : أن العظمة لم تغن العظماء من الموت فتيلا ، وأن القوة والجبروت لم يغنيا أصحابهما يوم الحين شيئا ، فتكون العبرة والموعظة والعزاء ، من ذلك قوله : (٢)

وأفنى بنات الدهر أرباب ناعط
بمستمع دون السماء ومنظر

(١) الديوان ص ٤١ ، ١٧٤ ، ٢ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ٢٠٩ .
(٢) الديوان ص ٥ وما بعدها .

وبالحـارث الحراب فجعن قومـه
ولـو هاجهم جـاءوا بنصر مـؤزر

وأهلـكن يومـا رب كنـدة وابنـه
ورب معـد بين خبت وعـرعـر

وأعوصن بالدومى من رأس حصنه
وأنزلن بالأسـباب رب المشـقر

واخلفن قسـا ليتنى ولـو اننى
وأعيـا على لقمان حـكم التـدبر

فـان تسـالينا فيم نحن فاننـا
عصـافير من هذا الأنام المسـحر

نحـل بلادا كلهـا حـل قبلنـا
ونرجو الفـلاح بعـد عاد وحميـر

وقوله :

غلب الليـالى خلف آل محـرق
وكمـا فعلـن بتبـع وبهـرقل

وغلبن أبرهـة الـذى ألفينـه
قـد كان خلـد فوق غرفة موكـل

والحـارث الحـراب خلى عاقـلا
دارا أقـام بهـا ولـم يتنقـل

تجـرى خزائنـه على من نابـه
مجرى الفرات على فراض الجدول

والشـــاعرون النـــاطقون أراهمــو
سلكوا ســبيل مرقش ومهلهل (١)

ويتلمس الموعظة بموت النعمان بن المنذر فى براعة تامة ، اذ واءم بين أطراف الموضــوع ، فوقف بنـا على النعمان الجاهلى ومجالس شرابه ، وتخرقه فى الـــكرم ، وجنده وعتاده ، وحصونه وقلاعه ، رغبة فى ضمان وصول موعظته الى القلوب ، ومقررا أن الجاهل هو من سـولت له نفسه الخلود والبقاء :

فان امرءا يرجو الفلاح وقـــد رأى
ســواما وحيـا بالأفاقـــة جاهـل

والعظمة ما حالت بين العظماء والموت :

فبادوا فمـا أمسى على الأرض منهم
لعمرك الا أن يخبــر ســائل ...

وأمسى كأحــلام النيــام نعيمهم
وأى نعيم خلتــه لا يزايــل ؟! (٢)

والفت النظر الى أن ما قاله لبيد فى النعمان ليس من باب الرثاء ، وانما من قبيل التماس الموعظة واذكاء العبرة بموته على ما كان له من مجد وسؤدد ، على شـاكلة حديثه عمن باد من عظماء الأرض الذين يعرفهم ..

٤ - السأم والبرم بالحيـاة ، والضيق بامتـداد العمر والتذمر من الشيخوخة : فقد احتملت نفس لبيد الحياة فى

---

(١) الديوان ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .
(٢) القصيدة فى الديوان ٢٥٤ ، ٢٦٦ .

شجاعة وصبر ، ثم طالت عليها الحياة ، وثقل عليها رفق الناس بها ، وعطف الناس عليها ، وسؤال الناس عنها ، فسئمت ذلك وضاقت به ذرعا ، وأعلنت فى صراحة هذا السأم :

ولقد سئمت من الحياة وطولها
وسؤال هذا الناس : كيف لبيد ؟! (١)

لقد مل لبيد حياته وسئم البقاء فيها ، لأن امتداد عمره ما أسلمه الا الى شيخوخة فانية وجسم هزيل وعجز وضعف :

أليس ورائى ان تراخت منيتى
لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

أخبر أخبار القرون التى مضت
أدب كأنى كلما قمت راكع

ولم لا يسأم الحياة التى أسلمته الى أرذل العمر مادام الموت يترصده ، وأنه فى انتظار أجله ؟!:

فلا تبعدن ان المنية موعد
عليك فدان للطلوع وطالع (٢)

ولبيد لذلك لا يحفل متى يأتيه أجله ، فحسبه من أيامه ما مضى :

فمتى أهلك فلا أحفله
بجلى الآن من العيش بجل

---

(١) الديوان ص ٣٥ .
(٢) الديوان ص ١٧٠ وما بعدها .

من حيـــاة قـد مللنا طولهـــا
وجدير طـول عيش أن يمـــل

وواضح أن القضايا التى عالجها لبيد فى شعره الحكمى قضايا انسانية عامة ، تدور فى مجال واسع ، ويرن صداها فى النفس الانســـانية ، مما كتب لها البقاء ، واكســـبها الخلود ٠

ولبيد علم من أعلام شـــعراء الحكمة الاســـلاميين ، الذين أثرى الاسلام أفكارهم فبرعوا فى هذا الفن ، وحكم لبيد ـ كما بدا لنا ـ قواعد وأسس فى السلوك والأخـــلاق سار على نسقها من جاء بعده ٠

هذا وان الجوانب المتعددة فى حكم لبيد والتى كشفت عنها هذه الدراســـة لتؤكد أن الرجل لم يجبـــل فى ظلال الاسلام ، وانما يظل يقرض الشعر ٠

* * *

القسم الرابـــع

أثر الاسلام فى شــعر لبيد

١ ـ أثر الاسلام الروحى فى شعر لبيد

٢ ـ أثر الاسلام الفكرى والانسانى فى شعر لبيد

٣ ـ أثر الاسلام فى ألفاظ وأساليب شعر لبيد

٤ ـ أثر الاسلام فى البناء الفنى

أثر الاسـلام الروحى

فى شـعر لبيـد

الاسلام بما ينطوى عليه من خضـوع وانقياد لله عز وجل ، وسلوك خلقى كريم ، يقابل الجاهلية بما تدل عليه من النزق والسـفه والطيش والظلم والتمدح به والثورة لأتفه الأسباب . هذا الاسلام الذى رضيه الله دينا لعباده ، والذى تكفل بسـعادة الناس جميعـا ، غرس فى نفوس اتبـاعه قيمه الروحيـة ، المتمثلة فى ايمـانهم بخالقهم وبوحـدانيته ، وبعلمـه الغيب ، وبقدرته وسـلطانه ، وبعقابه ورحمته ، وبرسله وكتبه وملائكته ، وفى : الايمان بالموت والبعث والثواب والعقـاب ، وبالعمل الصـالح ، والامتثال لأمر الله ، والانتهاء عن نواهيه . وما اليها من هذه المثل العليـا التى اشربت حبهـا والاذعان لها قلوب المسلمين المؤمنين .

وبدا أثر ذلك واضحـا فى الشـعر فى عصر صـدر الاسلام ، فقد جاء شعر هذا العصر يحمل كثيرا من هـذه القيم الروحية ، متأثرا بدسـتور الاسـلام الخالد القرآن الكريم .

ولم يكن لبيد الشـاعر المخضرم فى شعره الاسـلامى ببعيد عن التأثر بهذه القيم الروحية الاسلامية .

لقد تعمق الاسلام فى قلبه ، وتغلغل حبه فى ضميره ، واشربت روحه حب هـذه العقيـدة الغـراء ، فانطبعت مبادئها على صفحة شـعره ، كما انطبعت على صـفحة قلبه ، ولا غرو !! فان تأثر لبيـد بقيم الاسـلام الروحية واضح وجلى ، يكشف عن وضوحه وجلائه شـعره فى ظلال الاسلام .

فقد افصح شـــعره عن ايمان الشـــاعر بوحدانية الله وقدرته وهيمنته على كل شىء ، كما فى قوله :

ان تقـوى ربنـا خيـــر نفـل
وبـاذن اللـــه ريثى وعجـــل

أحمـــد اللـــه فلا نـــد لـــه
بيـديه الخيــر ماشـــاء فعـل

من هداه سـبل الخير اهتـدى
ناعم البـــال ومن شـاء اضــل

وقوله :

قضى الأمـــور وأنجـــز الموعـــود
واللـــه ربـــى ماجـــد محمـــود

ولــه الفواضـــل والنوافـــل والعـــلا
ولـــه أثيث الخيـــر والمعـــــدود

وقوله :

حمـــدت اللـــه واللـــه الحميـــد
وللـــه المؤثـــل والعـــديد

فـــان اللـــه نافلـــة تقـــاه
ولا يقتالهـــا الا ســـعيد

وقوله :

للــه نافلـــة الأجـــل الأفضـــل
ولـــه العـــــلا وأثيث كل مؤثل

لا يستطيع النـــاس محو كتـــابه
أنـــى وليـــس قضـــاؤه بمبـــدل

سوى فاغلق دون غـــرة عرشـــه
ســـبعا طبـــاقا فـــوق فـــرع المنقـــل

والأرض تحتهـــم مهـــادا راســـيا
ثبتت خلائقهـــا بصـــم الجنـــدل

والمـــاء والنيـــران مـــن آياتـــه
فيهن موعظـــة لمـــن لـــم يجهـــل

بـــل كل ســـعيك باطـــل الا التقى
فاذا انقضى شىء كأن لم تفعل (١)

وقد نهل الشاعر - كما ترى - من آى الذكر الحكيم : « وتزودوا فان خير الزاد التقوى » و « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير » و « قل هو الله أحد » و « الله لا اله الا هو الحى القيوم » و « بيدك الخير انك على كل شىء قدير » و « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » و « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » و « الحمد لله رب العالمين » و « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » و « بيده الخير وهو على كل شىء قدير » و « ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد » و « وكان أمر الله قدرا مقدورا » و « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج، والأرض مددناها والقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » و « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » .

كذلك برز أثر الاسلام الروحى فى ايمان لبيد بأن الله

---

(١) الديوان ص ١٧٤ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٢٧١ .

هو الباقى بلا حدود ، وأن كل من عداه يأتى عليه الفناء ، من ذلك قوله :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل
وكل نعيم لا محالة زائل

وكل أناس سوف تدخل بينهم
دويهية تصفر منها الأنامل

وقوله :

ما ان تعرى المنون من أحد
لا والد مشفق ولا ولد

وقوله :

لو كان شىء خالد لتواءلت
عصماء مؤلفة ضواحى مأسل

بظلوفها ورق البشام ودونها
صعب تزل سراته بالأجدل

أوذو زوائد لا يطاف بأرضه
يغشى المهجهج كالذنوب المرسل

فى نابه عوج يجاوز شدقه
ويخالف الأعلى وراء الأسفل

فأصابه ريب الزمان فأصبحت
أنيابه مثل الزجاج النصل

وقوله :

من يبسط الله عليه أصبعا
بالخير والشر بأى أولعا
يملأ له منه ذنوبا مترعا
وقد أباد ارما وتبعا
وقوم لقمان بن عاد أخشعا
اذ صارعوه فأبى أن يصرعا

وقوله :

فهون ما ألقى وان كنت مثبتا
يقينى بأن لاحى ينجو من العطب (١)

يبرز فى تضاعيف هذه الأبيات ايمان لبيد المسلم بأن البقاء والخلود لله عز وجل ، وأن كل من فيها من بشر وما فيها من نعيم عرض زائل ، وأن الفناء يأتى على كل خلق الله .

وهذه القيم الروحية نراه يقتبسها من قول الله تعالى: « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام» و « كل شىء هالك الا وجهه » .

كما يتألق فى شعره الاسلامى ايمانه العميق بالموت والبعث والحساب ، كما فى قوله :

انما يحفظ التقى الأبرار
والى الله يستقر القرار

والى الله ترجعون وعند
الله ورد الأمور والاصدار

---

(١) الديوان ص ٢٥٦ ، ١٥٨ ، ٢٧٢ ، ٣٣٧ ، ٢ .

كل شىء أحصى كتـــابا وعلما
ولديـــه تجلت الأســـرار

يـــوم أرزاق من يفضـــل عم
موســـقات وحفـــل أبـــكار

فاخرات ضروعها فى ذراهـــا
وأناض العيـــدان والجبـــار

يوم لا يدخل المدارس فى الرحـ
ـمة الا بـــراءة واعتـــذار

وحســـان أعـــدهن لأشـــهـا
د وغفـر الـذى هــو الغفـــار

ومقـــام أكـرم به من مقـــام
وهـــواد وســـنة ومشـــار

ان يكون فى الحياة خير فقد أنـ
ـظرت لو كان ينفع الانظـــار

عشت دهرا ولا يدوم على الأيـ
ـــام الا يرمــرم وتعـــار ...

هلكت عامــر فلم يبق منهـــا
برياض الأعــراف الا الـــديار

وقوله بعـد حديثه عن عظة الموت ، وكيف يأتى على الملوك والأمم :

فبـــادوا فمـــا أمسى علــى الأرض منهـــم
لعمـــرك الا أن يخبـــر ســـائل

كـــأن لم يـــكن بالشـــرع منهـــم طـــلائع
فلم ترع ســـحا فى الربيـــع القنـــابل

وبالـــرس أوصـــال كــأن زهاءهـــا
ذوى الضـــمر لمازال عنهـــا القبـــائل

وغســان ذلت يـــوم جلـق ذلـــة
بســـيدها والأريحـــى المنـــازل

رعـى خـرزات الملك عشـــرين حجـــة
وعشـرين حتى فـاد والشـــيب شـــامل

وامســـى كاحـــلام النيـــام نعيمهـــم
وأى نعيـــم خلتـــه لا يزايـــل

تـــرد عليهـــم ليلـــة أهلكتهـــم
وعـــام وعـــام يتبـــع العـــام قابـــل

وقوله فى أربد :

لـن تفنيـــا خيـــرات أرَ
بـــد فابكيـــا حتـــى يعـــودا

قـولا هـــو البطـــل المحـــا
مى حين يكســـون الحديـــدا

ويصـــد عنـــا الظـــالميـ
ـن اذا لقينـــا اليوم صـــيدا

فاعتـــاقه ريـــب البـــري
ـــة اذ رأى أن لا خلـــودا

فثـوى ولـــم يوجـــع ولـــم
يوصب وكان هو الفقيـدا (١)

---

(١) الديوان ص ٤١ ، ٢٦٥ ، ١٦٣ ، ٢١٣ .

فنراه يستمطر الدمع ويستثير البكاء على أربد ذى الخيرات ، الذى يجب أن يتواصل البكاء عليه حتى يعود يوم الدين ، ويبعث النـــاس من قبورهم ، ثم يؤكد على حقيقة هامة أخرى آمن بها تتمثل فى أنه لاحى يخلـــد فى هذه الحياة ، وما متاعها الا الى زوال ٠ والى هذا يشـــير قوله :

تمنى ابنتـــاى أن يعيش أبوهمـــا
وهـــل أنا الا من ربيعـــة أو مضر ؟!

ونتامل نظرات لبيـــد الصـــائبة فى الوجود من بشر ومظاهر طبيعية ، فقد تقرر لديه ـ وهذا هو الحـــال ـ أن الناس أسرع فناء من مظاهر الطبيعة ، فالجيـــل من البشر يأتى عليه الموت ويدركه العدم ، بينما ماشيد من قصور ، وما خلق الله من نجوم وجبال باقية ، يحيا عليها جيل آخر، فالحياة مستمرة على الأرض ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، فى قول لبيد :

بلينـــا وما تبلى النجوم الطوالـــع
وتبقى الجبـــال بعدنا والمصـــانع

وقد كنت فى أكنـــاف جار مضـــنة
ففـــارقنى جـــار بأربـــد نافـــع

فـــلا جـــزع ان فـــرق الدهـــر بيننـــا
وكـــل فتى يوما به الدهـــر فاجـــع

فـــلا أنـــا يأتينى طـــريف بفرحـــة
ولا أنا ممـــا أحدث الدهـــر جازع

وما الناس الا كالديار وأهلهـــا
بهـــا يوم حلوهـــا وغدوا بلاقـــع

وما المـرء الا كالشـهاب وضـوئه
يحور رمادا بعـد اذ هو سـاطع

ومـا البـر الا مضـمرات من التقى
ومـا المـال الا معمرات ودائـع

ومـا المـال والأهلون الا وديعـة
ولابـد يومـا أن تـرد الودائـع

ويمضون أرسـالا ونخلف بعـدهم
كما ضـم أخـرى التاليات المشـايع

ويقرر حينئذ أن الناس يوم العرض على الله للحساب نوعان : خاسر ورابح ، قائلا :

ومـا النـاس الا عامـلان : فعـامل
يتبـر مـا يبنى وآخـر رافـع

فمنهـم سـعيد آخـذ لنصـيبه
ومنهـم شـقى بالمعيشـة قانـع

وهذه الحقيقة تتجلى بوضوح فى قوله :

وكـل امـرىء يومـا سـيعلم سـعيه
اذا كشـفت عنـد الاله المحاصـل (١)

ولعلك ترى معى أن هـذه المعانى التى تشـيع فى تضـاعيفها الآثار الاسـلامية الروحية ، والتى تمثلت فى ايمان لبيد بالبعث والنشور والثواب والعقـاب ، وبالموت والفناء ، هذه القيم مقتبسة من قول الله عز وجل : « وأن

---

(١) الديوان ص ١٦٨ وما بعدها ، ٢٥٧ .

مردنا الى اللـــه » و « والى الله تصير الأمور » و « وكل شىء أحصـــيناه كتابا » و « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » و « يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » و « والأمر يومئذ لله » و « يوم يأت لا تـــكلم نفس الا باذنه ، فمنهم شقى وســـعيد » و « أفلا يعلم اذا بعثر ما فى القبـــور ، وحصل ما فى الصدور » .

كذلك برز الأثر الاسلامى عند لبيد فى ايمانه الراسخ بأن الله علام الغيوب ، وفى ايمانه بالقدر وبالرسل ، كما فى قوله :

فـــلا تبعـــدن ان المنيـــة موعـــد
عليـــك فـــدان للطلـــوع وطالـــع

أعـــاذل مـــا يـــدريك الا تظنيـــا
اذا ارتحـــل الفتيـــان من هو راجـــع

تبكى على اثـــر الشـــباب الذى مضـــى
ألا ان أخـــدان الشـــباب الـــرعارع

أتجـــزع ممـــا أحدث الدهـــر بالفتى ؟
وأى كـــريم لـــم تصـــبه القـــوارع ؟!

لعمرك مـــا تـــدرى الضـــوارب بالحصـــى
ولا زاجـــرات الطيـــر ما اللـــه صـــانع

ســـــلوهن ان كذبتمونى متـــى الفتـــى
يذوق المنـــايا ؟ أو متى الغيث واقـــع ؟

وقوله :

فقـــولا لـــه ان كـــان يقســـم مالـــه
ألمـــا يعظك الدهـــــر ؟ أمـــك هابـــل

فتعلـــم أن لا أنت مـــدركُ ما مضـــى
ولا أنت ممـــا تحـــذر النفس وائـــل

فان أنت لم تصـــدقك نفســـك فانتسب
لعلـــك تهـــديك القـــرون الأوائـــل

وقوله :

وانـــى لآتى مـــا أتيت واننـــى
لـمـا أفترقت نفسى على لراهب

وانـــك مـــا يعطيكه اللـــه تلقـــه
كفاحا وتجلبه اليـــك الجوالب

وقوله :

أتينـــاك يـــا خيـــر البريـــة كلهـــا
لترحمنـــا ممـــا لقينـــا مـــن الأزل

أتينـــاك والعـــذراء يـــدمى لبانهـــا
وقد ذهلت أم الصـــبى عن الطفـــل ...

وليـــس لنـــا الا اليـــك فـــرارنا
وأين يفر الناس الا الى الرســـل ؟! (١)

ايمان راسخ بأنه لا يعلم الغيب الا الله ، ومنه الأجـل متى ينقضى ؟ وأين يحل ؟ والرزق الذى يسعى الانســـان لتحصيله ، وما الانســان فى الواقع الا ســـاع لغاية « وفى السماء رزقكم وما توعدون » وما قول المنجمين الا ترهات

---

(١) الديوان ص ١٧١ ، ٢٥٥ ، ٣٤٩ ، ٢٧٧ .

وتخمين ، وا
بأن محمــــدا
الســـلام .
من قول الله
عنــده علم ا
وما تدرى نف
تموت ان اللـ
الله لنا » و «

هذه القي
الاسلامى ، أث
المتمثلة فى د
فى شعره على
ورجــــاء ، خ
ورضوانه ، مز
الشعر من جه

وهذه الظ
على صدق ما
وأنه أعطى هد
وأنه لم يتوقف
المنطلق شاعر

أثر الاسلام الفكرى والانسـانى

فى شـعر لبيد

ارتقى الاسلام بالعقل الانسانى ، فخلصه من عقابيل الجاهلية وترهاتها وحماقاتها ، واحتكم اليه فى الوقوف على معرفة خالق الكون ومبدع نظامه ، ذلك بما دعاه اليه من التأمل فى أقطار السموات والأرض « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك » ، واحتكم اليه فى الدلالةعلى صحة البعث والنشور « قل يحييها الذى أنشاها أول مرة » .

ثم ان الذين لا يسـتغلون عقولهم فيمـا خلقت له من التأمل والتدبر ، لتكون المعرفة المستبصرة ، وليكون الفهم والاقتناع ، ولايدركون أن الله الذى كرمهم بفضيلة العقـل قد أودع هذه الفضيلة خواص تجعله قادرا على أن يسيطر على سـائر مخلوقات اللـه ، هؤلاء قد أنحى عليهم القرآن الكريم باللائمة ، فهم الصم البـكم العمى الذين لا يفقهون ولا يسـمعون ولا يبصرون « ان هم الا كالأنعـام بل هم أضل سبيلا » .

وشاعرنا لبيد فى ظلال الاسـلام استغل عقله وشحذ فكره ، فنظر فى صفحة الكون ، وتدبر فى آلاء الله ، « انما يتذكر أولو الألباب » والذين يتدبرون ويتعمقون يخلصون الى نتائج عقلية تبهر الأسماع والنهى ، وشعر لبيد الاسلامى يحفل بالكثير من الدقائق العقلية والتـأملات الفكرية ، التى تصـل فى دقتها وبراعتها الى حد فلسفة أسـاطين الفلاسفة فى عصور الفلسفة ، وما ذلكم الا لأن لبيدا قـد تأثر فى شعره بالقيم العقلية الاسلامية ، فاستخدم طاقاته الذهنية وأحاسيسه الوجدانية ، وشعره يفصـح عن تأملاته وأحاسيسـه ، من ذلك : انـكاره عصـيان الله ، وجحود الجاحدين للخالق العظيم ، ووصوله الى وحدانية الله من

خلال آياته الواضحة فى كل شىء خلقه ، وأن حركة الكون وسكونه شاهد صدق على قدرة مدبره ووحدانيته ، فى قوله :

فياعجبا كيف يعصى الالـ
ـه أم كيف يجحده الجاحد

وفى كل شىء له آية
تدل على أنه واحد

ولله فى كل تحريكة
وتسكينة أبدا شاهد (١)

واستشف عظمة الخالق فى خلقه الأضداد ، كما فى قوله :

والماء والنيران من آياته
فيهن موعظة لمن لم يجهل

ونظر فى النجوم وتأمل تتابعها حين تبدو وحيث تغور ، فى قوله :

والنجوم التى تتابع باللبـ
ـل وفيها ذات اليمين ازورار

دائب مورها ، ويصرفها النو
ر كما تعطف الهجان الظؤار

---

(١) نسب الراغب الأصفهانى فى محاضرات الأدباء ١٧٠/٢ هذه الأبيات للبيد ، وورد البيت الثانى منها فى البحر المحيط غير منسوب، ولكونه لم ينسب ينصرف الى لبيد . وقد نسبها الجاحظ فى المحاسن والاضداد ص ١٢٠ لأبى نواس ، ونسبتها عندى للبيد ارجح ، لمشاكلتها طبعه ، وقوة ايمانه ، وعمق تامله . ولعل ابا نواس قد تمثل بها .

ثـم يعمـى اذا خفيـن علينـا
أطوال أمراسها أم قصـار ؟ (١)

وخاطب لبيد العقـل واللب معا فى فلسـفة رائعة ، توصل من خلال فكرة الثاقب الى أن حبـائل الموت مبثوثة حول الانسان ، الذى لا ينبغى أن يظن أن عمله ينتهى وأن حوائجه تنقطع مادام حيا ، والمرء لن يحصل ما فات ، ولن ينجو مما هو آت ، وان كذب ، فليستنطق القرون ، فالعاقل من يبتغى عند الله الوسيلة بالطاعة والعمل الصالح ، فى قوله :

الا تسـألان المرء ماذا يحـاول ؟
أنحب فيقضى أم ضـلال وباطل ؟

حبـائله مبثوثـة بسـبيله
ويفنى اذا ما أخطـأته الحبـائل

اذا المـرء أسـرى ليلـة ظن أنه
قضى عمـلا والمـرء ماعاش عامـل
فقـولا لـه ان كان يقسـم أمـره

ألما يعظك الدهـر ؟! أمك هابـل

فتعلم أن لا أنت مـدرك ما مضى
ولا أنت مما تحـذر النفس وائـل

فان أنت لم تصدقك نفسك فانتسب
لعلك تهديك القرون الأوائل

فان لم تجـد من دون عـدنان باقيـا
ودون معـد فلتزعـك العـواذل

---

(١) الديوان ص ٢٧٢ ، ٤٤ .

أرى النـــاس لا يدرون ما قـــدر أمرهم
بلى : كـل ذى لب الى اللـه واسـل (١)

وهداه فكره الثاقب المتأثر بالقيم العقلية الاسلامية الى الايمان عن يقين وكتب بفناء ســائر المخلوقات - أناسى ولو كان ملوكا ، وجبالا ووحوشا - وان طال الابد ، وكأن لبيدا بذلك يقدم للانسـان الدليل القـاطع على زهده فى الدنيا ، واقباله على الطاعات كما فى قوله :

لـو كـان شـــىء خالـدا لتــواءلت
عصـماء مؤلفة ضــواحى مأســل

أوذو زوائــد لايطــاف بأرضــه
يغشـى المهجهج كالذنوب المرســل

فى نابـه عــوج يجــاوز شــدقه
ويخـــالف الأعلـــى وراء الأســـفل

فأصـــابه ريب الزمان فأصــبحت
أنيـــابه مثـل الــزجاج النصـــل

ولقــد جرى لبــد فأدرك جريــه
ريب الـزمان وكـان غيـر مثقـل

لمـا رأى لبـد النســور تطـايرت
رفــع القوادم كالفقيـــر الأعــزل

من تحتــه لقمـــان يرجـــو نهضــه
ولقـــد رأى لقمــان أن لا يأتلــى

غلب الليـــالى خلف آل محـــرق
وكمـــا فعلن بتبـــع وبهـر قـــل

---

(١) الديوان ص ٢٥٤ وما بعدها .

وغلبن ابرهـــة الـــذى ألفينـــه
قـد كان خلـد فوق غرفـــة موكـل

والحـــارث الحـراب خلى عاقـــلا
دارا أقـــام بهـــا ولـــم يتنقـــل

تجـــرى خزائنـــه على من نابـــه
مجرى الفرات على فراض الجـدول

حتـــى تحمـــل أهلـــه وقطينـــه
وأقـــام ســـيدهم ولـــم يتحمـــل

والشـــاعرون النـــاطقون أراهـــم
سلكوا ســـبيل مرقش ومهلهل (١)

ونظر فاذا الانسان حديث لمن بعده ، واذا الانســـان كان لم يكن شيئا مذكورا ، فى قوله :

فبادوا فما أمسى على الأرض منهم
لعمـــرك الا أن يخبـــر ســـائل

كأن لم يكن بالشـــرع منهم طلائـــع
فلم ترع ســـحا فى الربيع القنابل ...

وأمس كأحـــلام النيـــام نعيمهم
وأى نعيـــم خلتـــه لا يزايـــل ؟!!

وتأمل فاذا كل جديد يرجـع الى بلى ، واذا الدهـــر لا يغلب ، واذا الليل والنهار يتعـــاقبان قويين ، بينمـــا يضعف الانسان ويهزل ، فى قوله :

---

(١) الديوان ص ٢٧٢ وما بعدها .

وأبوك بســـر لا يفند عمـــره
والى بلـــى مـــا يرجعن جديـــد ٠

غلب العزاء وكنت غير مغلب
دهـــر طويـــل دائـــم ممـــدود

يـــوم اذا يأتـــى على وليلـــة
وكلاهما بعـــد المضـــاء يعود

وأراه يأتى مثـــل يوم لقيتـــه
لم ينصرم وضـــعفت وهو شـــديد

ويسبر أغوار النفس والمجتمع ليصل الى : أن العتاب المجدى هو المنبعث من ضمير الحر ونفس الكريم اللوامة ، وأن الانسان يتأثر بخليله فى الصلاح والغواية ، فى قوله :

ما عاتب الحر الكريم كنفســـه
والمرء يصلحه الجليس الصـــالح

ولعلك لاحظت معى أثر الاســـلام فى هـــذه القيم الفكرية ، وأن جانبا عظيما منها قد استمده لبيد من القرآن الكريم أو الحديث الشريف ، كقول الله عز وجل :

« لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا »

وقول الرسول صلى الله عليه وســـلم « كفى بالموت واعظـــا » و « لا تقل لو كان كذا لـــكان كذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فان لو تفتح عمل الشـــيطان » وقول الله تعـــالى : « ولا أقســـم بالنفس اللوامة » وقول الرســـول صلى الله عليه وسلم « مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير » ٠

وهذا الاقتباس انما يدل دلالة قاطعة على تأثر لبيد بقيم الاسلام العقلية ، وعلى أنه صدع لأمر الله فى التدبر فى كونه وآلائه .

وفى شعر لبيد الاسلامى - الى جانب هذه القيم - قيم أخرى انسانية ، تأتى من تأثره بالقيم الاسلامية الانسانية ، وتتضح لنا هذه القيم فى : الوفاء والمروءة ، سواء فى وفائه للذاهبين الماضين ، أم فى وفائه للأصدقاء ، كما فى قوله :

ان الرزية لا رزية مثلها
فقدان كل أخ كضوء الكوكب

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم
وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

يتأكلون مغالة وخيانة
ويعاب قائلهم وان لم يشغب ...

من معشر سنت لهم آباؤهم
والعز قد يأتى بغير تطلب

فبرى عظامى بعد لحمى فقدهم
والدهر ان عاتبت ليس بمعتب

وقوله فى أربد أخيه لأمه :

لن تفنيا خيرات أر
بد فابكيا حتى يعودا

قولا هو البطل المحا
مى حين يكسون الحديدا (١)

(١) الديوان ص ٢٦٥ ، ٣٥ وما بعدها ، ٣٤٩ ، ١٥٧ ، ١٦٣ .

وهو هنا قد جرد من نفسه شخصين فخاطبهما ، وقوله هذا لا يحمل على المن ، وانمـا هو اسـتثارة للبكاء على أربد ذى الخيرات ، الذى ينبغى بـكاؤه حتى يوم الدين وبعث الناس من قبورهم ، وهذا انما يدل على وفائه لمن رحل عن الدنيا ، ومثله قوله فى أربد أيضا :

اذا اقتصـدوا فمقتصـد أريب
وان جـاروا سـواء الحـق جـارا

ويهـدى القـوم مضـطلعا ، اذا ما
رئيس القـوم بالمومـاة حـارا

وقوله :

فتى كـان أما كل شـىء سـألته
فيعطى ، وأمـا كل ذنب فيغفـر

فان يـك نوء من سـحاب أصـابه
فقـد كان يعلو فى اللقـاء ويظفر

وقوله فى الذاهبين من قومه وبنى أبيه :

ابنـى هـل أحسست أعـ
ـمامى بنى أم البنينـا ؟

وأبـى الـذى كـان الأرا
مل فى الشـتاء له قطينـا ؟

وأبـو شـريح (١) والمحـا
مى فى المضـيق اذا القينـا

---

(١) أبو شريح : هو الأحوص بن عمرو ، وشريح ابنه احـد من سـاد من بنى جعفر ، وقد رفع « أبو » بعد النصب فى البيتين السابقين والتقدير « وأبو شريح هل أحسته ؟ » ويروى : « وأبا شريك » .

فاما ترينى اليـــوم عندك ســالما
فلست بأحيـا من كلاب وجعفر (١)

فلبيد كريم ، حلو الشـمائل ، مثقوب الـكف ، وان جهدت فى لومه اللائمة ، لأنه على يقين من أن المـال وان كثر لن يغنيه عن الموت فتيلا ، وان العرض أولى بالصيانة من المال ، والذين يطلبون الحمد ، ويبتغون حسن الثناء ، وذيوع الصـيت ، يشـترون ذلك بتلاد المـال وطارفه ، والـكرم ، وتتبع فعال الصـالحين ، فالانسـان لا يخلد الا بخلود ذكره ، ويمثل هذه القيم أيضا قوله :

ذرنـــى ومـــا ملـكت يمي
ـنى ان رفعت بـه شـئونا

وأفعـل بمـالك مـا بـدا
لـك ان معـانا أو معينـا

وكثرة اللائمين من حوله تدل على أنه كان فياضـا سخيا ، يداه غمامة ، وأن فواضله ما تغب على طالبى نواله ومعروفه .

رعاية الجـار والحرص عليـه : تلوح هـذه القيمة الانسانية فى شعر لبيد بوضوح ، وتدل على مروءته ونبل خلقه ودماثة طبعه ، وعلى تأثره بالاسلام فى حثه المتـكرر على الحفاظ على الجار ومراعاة حقوقه ، من ذلك قـول لبيد يخاطب عاذلته ويدعوها الى التدبر ، فعذلها لن يثنيه عما هـو ماض فيه ، من فلج الخصـم ، والكرم ، ورعاية الجارة التى تحمد صنيعه معها ، واجابة غلام جارته الى طلبه ، واتباع الجـارة المعروف والخيـر اذا امتنعت عن الطلب ، أو ارتحلت ، وازدياد الفيض والعطاء فى ليـالى الشتاء ، وهذا غاية الـكرم فان شدة العرب وبؤسـهم فى الشتاء لعدم النبات : يقول :

---

(١) الديوان ص ١٦٧ ، ٣٢٣ ، ٢١٤ ، ٤٦ وما بعدها .

اعقلــــى ان كـــنت لمـــا تعقلـــى
ولقـــد أفلـــح من كـــان عقـــل

ان تـــرى رأسـى أمســـى واضـحا
ســـلط الشـيب عليـــه فاشـــتعل

فلقـــد أعـــوص بالخصـــم وقـــد
أمـــلأ الجفنـــة مـــن شـــحم القـلل

ولقـــد تحمـــد لمـــا فـــارقت
جارتى ، والحمـــد من خير خـــول

وغـــلام أرســـلته أمـــه
بالـــوك فبذلنـــا مـــا ســـال

أو نهتـــه فاتـــاه رزقـــه
فاشـــتوى ليلـــة ريـــح واحتمـــل

مـــن شـــواء ليـس مـــن عارضـــة
بيـــدى كـــل هضـــوم ذى نـــزل

ولبيد فى عطائه جواد كريم ، يعطى فى سخاء ، ويبذل مما يحب ويشتهى ، امتثالا لقول الله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ومن ذلك قوله :

وجـــارته اذا حلـــت اليـــه
لهـــا نفـــل وحظ فى الســـنام

فان تقعـــد فمـــكرمة حصـــان
وان تظعن فمحســـنة الـــكلام

ومنه ما جاء فى وصيته لابى حنيف :

واقعـــل بمـــالك مـــا بـــدا
لـــك ان معـــانا أو معينـــا

واعفف عـــن الجـــارات وامـ
ـنحهن ميســـرك الســـمينا
وابـــذل ســـوام القـــدران
ســـواء هـــا دهمـــا وجـــونا
ذا القـــدر ان نضجت وعجـ
ـــل قبلـــه مـــا يشـــتوينا

ان القـــدور لواقـــح
يحلبن أكثـــر مارغينـــا (١)

أنه يشترى حسن الثناء والحمد بالكرم الفيـاض ، ومن هنا جعل للقدور ضروعا تدر ، فهن يحلبن من الحمد والذكر والشرف أكثر مما يطعم فيهن .

الخوف على بنتيه من الحزن والجزع عليه : فى هـذه الزواية الانسانية ينبلج الاحساس النبيل ، والشعور الأبوى الدفاق ، ويصور لنا لبيدا مسلما رحيما بفلذتيه ، متوجسا خيفة من حزنهما ، وانعطـاف الرجل نحو بنـاته ما كان ليظهر سافرا هكذا فى مجتمع يدس بنـاته فى التراب ، ويتوارى الرجل من القوم خزيا اذا بشر به ، الا أنه الاسلام بمبادئه التى غرسها فى قلوب أتباعه ، وقيمه التى نماها فى أفئـدة معتنقيه ، ومنهم لبيد الذى صور هذه المشـاعر النبيلة فى قوله :

تمنى ابنتـــاى أن يعيش أبوهمـــا
وهل أنا الا من ربيعـــة أو مضر ؟!

ونائحتـــان تنـــد بان بعـــاقل
أخـــا ثقـــة لاعين منـــه ولا أثـــر

---

(١) الديوان ص ٣٢٤ ، ١٧٧ وما بعدها ، ٢٠٤ ، ٣٢٤ .

وفى ابنى نزار أسوة ان جزعتما
وان تسالاهم تخبرا فيهم الخبر

فهو هنا يخشى جزعهما وفجيعتهما فيه ، وجزعهما يؤلمه ويمضه ، ولهذا شرع يسرى عنهما ، ويذكرهما بأن الموت مصير كل حى ، ومن منطلق خوف الأب الحانى على بنتيه من اتيان المبالغة فى مظاهر الحزن على جمالهما ، راح يرسم لهما طريقا ينبع من قيم الاسلام وروحه :

فان حان يوما أن يموت أبوكما
فلا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر

وهذا الاحساس بدا لنا أيضا فى قوله :

فى ربرب كنعاج صا
رة يبتئسن بما لقينا

متسلبات فى مسو
ح الشعر أبكارا وعونا

وحذرت بعد الموت يو
م تشين أسماء الجبينا (١)

وقد ألح لبيد المسلم فى تقرير هذا المفهوم لدى بنتيه : بسرة وأسماء ، ثم وقف بأسماء ، تكشف عن خوفه وايمانه وثقته فيما عند الله ، وبدهى أن بسرة مقصودة بالنصيحة أيضا ، فى قوله :

يا أسم صبرا على ما كان من حدث
ان الحوادث ملقى ومنتظر

(١) الديوان ص ٢١٣ ، ٣٢٦ .

صبرا على حدثان الدهر وانقبضى
عن الدناءة ان الحر يصطبر

فما رزقت فان الله جالبه
وما حرمت فما يجرى به القدر (١)

هذه القيم الانسانية تدل دلالة قاطعة على تأثر لبيد بالقيم الانسانية فى الاسلام ، البارزة فى القرآن الكريم وفى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وهذه القيم الروحية والفكرية والانسانية فى تأثرها بالاسلام وقيمة ، وتفجرها من ينابيعه لتؤكد على أن لبيدا شاعر مخضرم ، وأن خاطره ما أجبل عن الشعر فى الاسلام .

ولا ينفى هذه الحقيقة وجود بعض هذه المعانى فى شعر الجاهليين ، كالمعانى الانسانية مثلا ، لأنها معان عامة شائعة ، وتراث قديم مشترك ، أقره الاسلام وأبقى عليه ، وأثنى على معتنقى هذه القيم ، ووعدهم بالمثوبة ، ونفر من النكوص عنها ، وأوعد من حاد عن جادة الصواب .

وهذا هو الجديد فى عالم هذه المفاهيم ، والمتأمل يتراءى له عن كثب أن لبيدا انما تناولها فى ضوء هذا المعيار .

وليس من المعقول فى شىء أن تتفق هذه القيم والمعانى الروحية والفكرية والانسانية ، فى الايمان بالخالق ووحدانيته ، وبالرسل ، والبعث والحساب والثواب والعقاب ، وما الى ذلك ، أن تتفق لأعرابى مثل لبيد ما لم يكن قرأ أو استمع ممعنا الى آى الذكر الحكيم التى تقرر فى جلاء ووضوح هذه القيم .

---

(١) انظر الديوان ص ٣٦٤ .

ولا ريب فانه فى مقدور الانســان الحافظ لكتاب الله أن يردد فى معنى كل شطر للبيد – ذكرناه سلفا – آية أو أكثر من كتاب الله عز وجل ، مما يؤكد على أن لبيدا قــد تلا هذه الآيات ، وتعمق معانيها ، ثم قال شعرا تمثل فيــه معانى هذه الآيات .

ومن ثم فان شيوع هذه القيم الاســلامية فى شــعر لبيد ، انما هى أقباس من تعاليم الاسلام ، واقتبــاس من دستوره الخالد .

وأثر القرآن الكريم والاسلام واضح فى شــعر لبيد ، ولا غرابة !!

فمن غير المألوف أن يطرق لبيــد أبواب هــذه القيم الاسلامية مجتمعة وأن يلج أفنيتها مصادفة .

* * *

أثر الاسلام فى ألفاظ وأساليب

شعر لبيد

اذا كان ثمت قدر مشترك بين بعض المعانى ـ التى تحدثنا عنها آنفا ـ فى الاسلام والجاهلية ، فان هذا القدر ينمحى فى الألفاظ ويتلاشى ٠

والألفاظ ـ بلاريب ـ أهم ما يميز الشعر الاسلامى ، اذ أن الاسلام كان قد أخرس أصوات بعض الألفاظ بمدلولاتها فى الجاهلية ، وأقام على أنقاضها ألفاظا فياضة بالروح الاسلامية ، كذلك أوجد الاسلام ألفاظا لم تكن مذكورة ، كلفظة « الجاهلية » للزمن الذى كان قبل البعثة النبوية ، ولفظة « المنافق » لمن دخل الاسلام بلسانه دون قلبه ، ونقل الاسلام بعض الألفاظ من معانيها اللغوية الى معان اصطلاحية شرعية ، كالفاظ « المسلم والمؤمن والكافر » ٠

ومن هنا فان ألفاظا تدل على المعانى الدينية ، وتوحى بالقيم الاسلامية فى ضوء الدين الجديد قد حلت محل ألفاظ جاهلية ، كما صفى ألفاظا أخرى وأقالها من عقالها الذى كانت ترسف فيه فى الجاهلية ، وخلع عليها مدلولا اسلاميا رقيقا مهذبا ، وشعر لبيد تشيع فى تضاعيفه ألفاظ اسلامية كثيرة ، ولقد اتسمت ألفاظ شعره فى الفترة التى قضاها فى ظلال الاسلام بسمات ميزته عن ألفاظ شعره فى الجاهلية ، وأهمها :

١ ـ شيوع الألفاظ الاسلامية فى تضاعيفه : فالناظر فى شعر لبيد هذا تتراءى له ألفاظ اسلامية ، تمثل العقيدة وروحها ، وتشف عن المثل والقيم ، وتكشف عن المعانى التى أوجدتها الحياة الاسلامية ، وتبرز تأثر الشاعر

بالقرآن الكريم فى ألفاظه وأساليبه ، وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، من هذه الألفاظ : « الاسلام والتقوى والغفار والحمد لله والسلام والمغفرة والرحمة والصلاح والفلاح والرسل والأبرار » على شاكلة قوله :

الحمد لله اذ لم يأتنى أجلى
حتى لبست من الاسلام سربالا

وقوله :

حمدت الله والله الحميد
ولله المؤثل والعديد

وقوله :

انما يحفظ التقى الأبرار
والى الله يستقر القرار

كل شىء أحصى كتابا وعلما
ولديه تجلت الأسرار ...

يوم لا يدخل المدارس فى الرح
ـمة الا براءة واعتذار

وحسان اعدهن لأشها
د وغفر الذى هو الغفار ...

فعلى عامر سلام وحمد
حيث حلوا من البلاد وساروا

وقوله :

وكم مشتر من ماله حسن صيته
لأيامه فى كل مبدى ومحضر

أباهى به الأكفاء فى كل موطن
وأقضى فروض الصالحين وأقترى

وقوله :

وما البر الا مضمرات من التقى
وما المال الا معمرات ودائع

وما المال والأهلون الا وديعة
ولابد يوما أن ترد الودائع (١)

وقوله :

وليس لنا الا اليك فرارنا
وأين يفر الناس الا الى الرسل ؟!!

فان تدع بالسقيا وبالعفو ترسل السـ
ـماء لنا والأمر يبقى على الأصل (٢)

هذه النماذج وغيرها تشيع فى تضاعيفها الألفاظ الاسلامية ، وقد ساوقت المعانى التى تكشف عن القيم الاسلامية النبيلة ، والتى تواكب المثل الانسانية الرفيعة .

ويبدو أن لبيدا قد تأثر بالقرآن الكريم والحديث الشريف ، والا ما جاءت هذه الثروة اللفظية الاسلامية فى شعره بهذا الكم وبهذه الصورة ، فالانسان الذى يحفظ كتاب الله يستطيع أن يتلو فى كل معنى تناوله الشاعر

---

(١) الديوان ٣٥٨ ، ٣٨ ، ٤١ وما بعدها ، ٤٧ ، ١٦٩ وما بعدها .
(٢) الديوان ٢٧٧ .

آية أو أكثر من كتاب الله ، ولا يتسنى للبيد الاعرابى أن يقف على هذه الألفاظ والمعانى الاسلامية الا اذا كان قد قرأ وفهم وتعمق الآيات القرآنية التى استقى منها الفاظه ومعانيه ، ثم قال شعرا فى معانيها . وان شيوع الألفاظ الاسلامية فى شعر لبيد ليدل دلالة قاطعة على صلة الشاعر الوثيقة بالاسلام ومنابعه .

٢ - اقتباس النهج القرآنى فى استعمال بعض الألفاظ :

رأينا لبيدا فى شعره الاسلامى يقتفى نهج القرآن فى استعمال بعض الألفاظ ، من ذلك استعماله كلمة « يعفو » بمعنى « يكثر » كما استعملها القرآن الكريم ، فى قول الله عز وجل فى سورة الأعراف الآية ٩٥ : « ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا » أى كثروا ، قال لبيد :

يعفو على الجهد والسؤال كما
أنزل صوب الربيع ذى الرصد

واستعماله كلمة « المصانع » كما استعملها القرآن الكريم ، بمعنى القصور المشيدة المحكمة ، فى قول الله تعالى فى سورة الشعراء الآية ١٢٨ ، ١٢٩ : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » قال لبيد :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع
وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

واقتفاؤه نهج القرآن الكريم فى استعمال كلمة « المسحر » بمعنى المعلل ، فى قول الله تبارك وتعالى فى سورة الشعراء الآية ١٨٥ : « قالوا انما أنت من المسحرين » فقال لبيد :

فـان تسـاءلينا فيـم نحـن فاننـا
عصافير من هذا الأنام المسحر (١)

الى غير هـذه من النماذج التى ينبىء عنها ديوانه ، والتى تؤكد على صلة الشاعر الوثيقة بالدستور الاسلامى ، وعلى أثر الإسلام فى شعره ٠

٣ ـ رقة الألفاظ وعذوبتها وحلاوتها :

لقد رقت الفاظ شـعر لبيد فى هـذه الآونة ، وعذبت كلماته ورقت حواشـيها ، وانتقلت بسـبب الاسـلام من الحوشية والغرابة الى الرقة والعذوبة ، فبعد أن كانت لغة شعره الجاهلى ـ كما يصفها أبو عمرو بن العلاء بأنها ـ « رحى برز » (٢) ٠ يريد أن شـعره خشن لا يحسن فى السمع ، ولا يعذب فى الأذن ، أصبح كما يصفه ابن سـلام « كان عـذب المنطق رقيق حواشى الـكلام » وهى رقـة يلاحظها من يتعرض لشعر لبيد الاسلامى ، اذ يتقرر لديه أن لبيدا قـد تخلص من جفاء البيئة البدوية وخشـونتها ووعورة الفاظها ، فتهذبت الفاظه وعذبت أساليبه ، فرقت حواشى شعره ، وحلا فى السمع ٠

ورقة ألفاظه وعذوبتها وحلاوتها فى الغـالب ما تأتى ممزوجة بالمشـاعر الانسـانية النبيلة والأحاسيس الرفيعة الرقيقة ، مما يكسب ألفاظه ومعانيه قوة التـأثير وعظمة الهيمنة على السامع أو القارىء المتذوقين ، وكأن شعره فى ظلال الاسلام قد انساب من نبع رقراق ، استمد ماءه من عيون الاسـلام الذى يمج التقعر ويـكره التكلف ويـذم التفيهق ، من ذلك قوله :

---

(١) الديوان ١٥٩ ، ١٦٨ ، ٥٦ ٠
(٢) الموشح ص ٧١ ٠

ولقد سئمت من الحياة وطولها
وسؤال هذا الناس كيف لبيد ؟

غلب العزاء وكنت غير مغلب
دهر طويل دائم ممدود

يوم اذا يأتى على وليلة
وكلاهما بعد المضاء يعود

وأراه يأتى مثل يوم لقيته
لم ينصرم وضعفت وهو يزيد

أكرمت عرضى أن ينال بنجوة
ان البرىء من الهنات سعيد

ومنه قوله :

طرب الفؤاد وليته لم يطرب
وعناه ذكرى خلة لم تصقب

سفها ولو أنى أطعت عواذلى
فيما يشرن به بسفح المذنب

لزجرت قلبا لا يريع لزاجر
ان الغوى اذا نهى لم يعتب

فتعز عن هذا وقل فى غيره
واذكر شمائل من أخيك المنجب (١)

فالفاظه ـ كما ترى ـ سهلة جزلة رقيقة عذبة ، ومعانيه

---

(١) الديوان ص ٣٤ وما بعدها ، ١٥٦ وما بعدها .

ممتعة خصبة ، تصور فى النموذج الأول عقلا مفكرا ، ونفسا جياشة بالمشاعر قد استقبلت الزمان ناظرة فيه ، تقارن مقبله بمدبره ، حتى أخذت من ذلك بحظها ، ثم احتملت الحياة فى شجاعة وصبر وجلد ، غير أنها سئمت الحياة ، وضاقت بسؤال الناس ، فأعلنت هذا الشعور بالسأم القابع فى أعماق النفس .

وعلى الرغم من أن النموذج الثانى يصور شعرا أرهقه الحزن ، وعناه الألم ، فان الرقة والعذوبة تنسابان فى تضاعيف أبياته ، وكأن الحزن والألم قد تضافرا ، فأرهفاه وصفياه ورققاه .

ان أثر الاسلام فى مثل هذه الأمثلة واضح ، وأنى لأعرابى كلبيد بكل هذه الرقة والعذوبة والحلاوة ، ما لم يكن قد قرأ القرآن الكريم فى وعى وتدبر ؟!!

غير أن لبيدا لم تعزب عنه الرقة اللفظية الا حين يتحدث عن غابره فى الجاهلية ، أو عن شىء فى البادية ، فيعنف لفظه بعض العنف ، ويجفو بعض الجفاء ، كما فى قوله :

وحميت قومى اذ دعتنى عامر
وتقدمت يوم الغبيط وفود

وتدأكات أركان كل قبيلة
وفوارس الملك الهمام تذود

أكرمت عرضى أن ينال بنجوة
ان البرىء من الهنات سعيد (١)

فعبارة « تدأكات » الواردة فى افتخاره بيوم الغبيط

---

(١) الديوان ص ٣٧

غريبة جافية ثقيلة ، لتقارب مخارج حروفها ، وتكرار التاء والهمزة ، وهى بمعنى « ازدحمت » يقال : مالكم تداكاون علينا مذ اليوم ، كأنه يجىء بعضهم فى أثر بعض ، وهذا المعنى لا يتيسر الا بالرجوع الى المعاجم اللغوية ، ثم ان جفاءها وعدم صلاحيتها للانسياب الشعرى أو الموسيقى لا تبرح قابعة فى حروفها المتنافرة حتى بعد الكشف عن معناها ، وهذا دليل الصدق فى التجربة الشعورية ·

غير أن الشاعر سريعا ما يعود الى رقته المعودة له فى شعره الاسلامى ، كما يبدو لك فى البيت الثالث · وهذا بلاريب اثرمن آثار الاسلام فى شعره ·

٤ ـ اقتفاء الأسلوب القرآنى :

لم تقف افادة لبيد من القرآن الكريم عند حد صياغة المعانى الاسلامية ، ومعانى الآيات القرآنية فى شعره ، وانما ضم اليها :

(أ) الافادة من أسلوب القرآن الكريم وبلاغته ونصاعة ديباجته ، فتراه قد نظر فى قول الله عز وجل فى سورة مريم الآية ٤ : « قال رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا » فصاغ هذا الأسلوب المجازى فى قوله :

ان ترى رأسى أمسى واضحا
سلط الشيب عليه فاشتعل (١)

ونظر فى قول الله تبارك وتعالى فى سورة البقرة الآية ٢٦٥ : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت

---

(١) الديوان ١٧٧ ·

إكلها ضعفين » فقال لبيد مكنيا عن كثرة قومه بنى جعفر :

ولقـد أرانى تارة فى جعفـــر
فى مثل غيث الوابل المتحلب (١)

(ب) الصدق والوضوح ومجانبة التعقيد والبعـد عن المبالغة والغلو :

وهذا الأثر واضـح فى شـــعر الرجل الاســـلامى كل الوضوح حتى فى الصور التى ينتزعهـــا من البيئة ، على شاكلة قوله :

أصــبحت أمشى بعد ســـلمى بن مالك
وبعـــد أبـى قيـــس وعـــروة كالأجب

يضـــج اذا ظـل الغـــراب دنا لـــه
حذارا على باقى السناسن والعصب (٢)

فهو هنا يعبر عن عاطفة جد صادقة فى رثاء قومـــه الذين يحبهم ، وقـــد تركوا فى نفســـه احساســـا بالألم والوحدة ، ويعبر بصـدق ووضوح عن مشـــهد واقعى رآه وتأثر به ، مشـــهد الجمل الذى قطع ســـنامه حين الجـدب والقحط ، فهو يرتعـد خوفا وألمـا اذا أحس غرابا دنا له ، أو توهم دنوه ، لما يفعله من النقر ببقايا سنامه واعصـابه وفقار ظهره ، فالصورة مؤثرة وصادقة ، وقد استطاع لبيد أن يجمع بين الصدق الفنى والواقعى على السواء ، وتأمل صدقه ووضوحه حين يصور الموت يسوق الناس نحو الهلاك براعى ابل يزجر المتخلف من ابله ، يسوقها نحـو القطيع فى قوله :

---

(١) الديوان ١٥٧ .
(٢) الديوان ص ١ .

ويمضـــون أرسـالا ونخلف بعدهم
كما ضـم أخـرى التاليات المشـايع

ولبيد حتى حين يلجأ الى الكناية لا يدير للصـــدق ظهره ، على نحو قوله الذى يكنى فيه عن الموت باصفرار الانامل :

وكل أناس ســـوف تدخـــل بينهم
دويهية تصـــفر منهـا الأنامل

يقول الطوسى فى شرح الديوان : « ان المرء اذا مات اصفرت أنامله ، واسودت أظافره » .

(ج) التأثر بأســلوب القرآن العقلى فى الاحتجاج ، بدلا من أسلوب اللجاج ، كما فى قول لبيد :

تلوم على الاهــلاك فى غير ضـــلة
وهل لى ما أمسـكت ان كنت باخلا

رأيت التقى والحمـــد خير تجـارة
رباحا اذا ما المـــرء أصـــبح ثاقلا

وهــل هــو الا ما ابتنى فى حياته
اذا قذفوا فـــوق الضريح الجنــادلا
وأثنوا عليــه بالــذى كـان عنـــده
وعض عليه العـائدات الأناملا (١) ؟

والأسلوب العقلى فى احتجاج لبيد على لائمته واضـــح فى هذا النموذج ، وضوح ما فيه من التهكم والسخرية من دعوى اللائمة على الانفاق والتخرق فى الكرم .

---

(١) الديوان ١٧٠ ، ٢٥٦ ، ٣٤٦ وما بعدها ، ٢٥٤ وما بعدها .

(د) عدم الجـرى فى فلك الأسـاليب التقليـدية المعهودة : فقد أفصح شعر لبيد الاسلامى عن ظاهرة تلوين الشاعر شـعره بأسلوب الحوار والقصص ، وفيهما اذكاء لعقل المخاطب ووجدانه معـا ، وبذلك يقبل المخاطب عليه بكل جوارحه وأحاسيسه ، لأنه طرف فى الحوار ، ولبيـد متأثر فى ذلك بقول الله تعالى : « وشـاورهم فى الأمر » ونلحظ هذه الظاهرة فى قول لبيد ـ على سبيل المثال ـ :

ألا تسـألان المـرء مـاذا يحـاول
أنحب فيقضى أم ضـلال وباطل ؟! ...

فقولا لـه ان كان يقسم أمـره
ألمـا يعظك الدهـر أمـك هابـل !!

فتعلـم أن لا أنت مدرك مـا مضـى
ولا أنت ممـا تحـذر النفـس وائـل

فان أنت لم تصـدقك نفسـك فانتسب
لعـلك تهـديك القـرون الأوائـل

فان لم تجـد من دون عـدنان باقيـا
ودون معـد فلتـزعك العـواذل

ولا شك أن هذا الأسلوب يجعل لموعظته صـدى فى نفس مخاطبه ، بعد أن اسـتحوذ على عقله ولبه فى الوقت ذاته .

ويتجلى فى شعر لبيد الاسلامى الى جانب أسـلوب الحوار الأسلوب القصصى ، فالفكرة عند لبيد فى كثير من الأحيان تبدأ ببداية قصصية وتنتهى بنهايتها ، ولم يغفـل لبيد ذيوع هذه الظاهرة فى شـعره ، التى واتته من طول عمره ، وكثرة تجاريبه ، وثقوب نظره ، فقال :

أخبر أخبـــار القـرون التى مضت
أدب كأنـــى كلمـــا قمت راكـــع

ومن ثم فقد قص علينـــا قصص الغساسنة فى جلق ، وصبح العادى ـ الذى قيل : انه أحـد ملوك الحبشة ، وان الأسد بقر بطنه وهو حى فرأى سواد كبده ـ وقصة ابرهة وحادثة الفيل ، وقصة لقمـــان ونسره لبـد ، ليخلص الى العبرة والتذكير ، وهو حين يروى قصة يظل ذهن القارىء أو المخاطب مرتبطا بهـــا ، متتبعـــا لأحداثها ، مترقبا لنهايتها .

والحبكة القصصية عند لبيد مكتملة الجوانب ، تقـوم على التماســك والترابط ، فلكل لفظـــة مغزى فى الالمام بجزء معين من القصة ، على شاكلة قوله :

وغســان ذلت يــوم جلـــق ذلـــة
بســـيدها والأريحى المنـــازل

رعى خرزات الملك عشـرين حجـــة
وعشرين حتى فاد والشيب شـامل

وأمسى كأحـــلام النيـــام نعيمهـم
وأى نعيم خلته لا يزايـــل ؟!! (١)

والذى يلفت النظر أن قصص لبيد فى شـــعره الجاهلى كانت تدور حـــول الحيوان غالبا ، كقصـــة هـذه البقرة الوحشـــية التى تبحث عن وليـــدها ، فلم تهتد اليـــه ، فافترسته السباع فى نهاية مؤلمة ، فى قوله :

وقنـــاة تبغى بحربـــة عهـــدا
من ضبوح قفى عليه الخيـــال

---

(١) الديوان ١٧١ ، ٢٦٦ .

الى قوله :

ثم لاقت بصـــيرة بعـــد يأس
واهابا فى بعضه أوصال (١)

أما فى شعره الاسلامى فقصصـــه تدور حول الماضين من ذوى البـــأس والقوة والجبروت لينتهى الى الموعظـة والاعتبار والتدبر بما آلوا اليه ، ولا ريب أن لبيدا فى هذا الاتجاه متأثر بأسلوب القرآن الكريم فى قصصه .

وان حوادث قصص لبيد ممتعة ، تجرى وفق نســق مترابط متلاحم ، وان البيت فيها لاينهض بنفسه ، وانمـا ينهض الى جانب مجموع أبيات القصة .

وبعد : فان أســلوب لبيد فى شعره الاســلامى تام الصياغة ، بالغ الجودة ، شديد الأسر ، محكم النسج ، متين العبارة ، يمتـاز بالرقة والعذوبة والسلاســة والبعد عن التعقيد والغرابة والوعورة - التى ظهرت فى شعر الرجل الجاهلى - وتلوح هذه الســمات اللفظية والأســلوبية بخاصة حين يعبر الشاعر عن خوالج نفسه أو يتفكر فى الحياة وأحوال النــاس ، ولك أن تقول ذلك فى شـــعره الذاتى بعامة ، الذى لم يخضع فيه لأثر البيئة أو طبيعة الموضوع، فلغة الغواطف الانســـانية لا تتغير ، الى جانب ما حرص عليه لبيـــد من ملاءمة ألفاظه لمعـــانيه ، التى تبرز القيم الإنسانية والمثل الرفيعة ، مدثرة بدثار الأساليب البيانية الموحية ، والمعبرة فى صـــدق ووضـــوح ، والبعيدة عن الاغراق والغلو ، وشطط الخيال ، والتفيهق والمعاظلة .

***

(١) الديوان ص ٢٧٠ .

أثر الاســـلام

فى البنـــاء الفنى

سار الشعراء الجاهليون فى بناء قصائدهم وفق نظام مرسوم لم يتخطوه ، حيث يستهلون القصـــيدة فى الغالب بالوقوف على الأطـــلال والدمن ، والبـــكاء على الديار والآثار ، والتغزل بالأحباب ووصف الرواحل التى يقطعون على ظهورها المفاوز ، لينتقلوا بعد هـــذه الرحلـــة الى غرضهم الرئيسى من مدح أو هجـــاء أو عتاب أو اعتذار ، وكان هـــذا التقليد الفنى مرعيا عندهم ، والخروج عليه يعد شذوذا ، وشاعرنا لبيد فى جاهليته لم يخرج على هذا النمط ، فقد رأيناه يذكر الديار ويقف عليها ويسائلها على نحو قوله :

ألـــم تلمم على الـــدمن الخـــوالى
لســـلمى بالمـــذانب فالقفـــال

وقوله :

عفت الـــديار محلهـــا فمقامهـــا
بمنـــى تأبـــد غولهـــا فرجامهـــا

ولكنه فى ظلال الاسلام الذى أخذت القصـــيدة فى أحضانه طريقها الى الغرض المقصود مباشرة ، يتأثر بهذه الروح الفنية الجديدة ، ويبنى فنه فى ضوئها ، ويتضـــح لنا ذلك فى :

١ ـ المطالع : يلوح لدارس شعر لبيد الاســـلامى أنه ضرب صفحا عن المطالع الجاهلية التقليدية ، وأنه قلب لها ظهر المجن ، لتحل محلها مطالع اسلامية بحتة ، أو متأثرة

بالروح الفنية الاسلامية ، التى تعمد الى الغرض ، دون لف أو نشر ، وهى لذلك تتفاوت بين الدين والقيم الاسلامية ، والحكمة والرثاء ، وعتاب المرأة التى تلومه على كرمه وتخرقه ٠

فأما الدين وتسبيح الله وحمده وتوحيده وتقوى الله، ، فقد كثر فى كثير من مطالع شعره الاسلامى ، بل أنه يشغل الحيز الأكبر من هذا الشعر ، ومنه قوله :

حمدت الله والله الحميد
ولله المؤثل والعديد

وقوله :

انما يحفظ التقى الابرار
والى الله يستقر القرار

وقوله :

ان تقوى ربنا خير نفل
وباذن الله ريثى وعجل

وقوله :

قضى الأمور وانجز الموعود
والله ربى ماجد محمود

وقوله :

لله نافلة الأجل الأفضل
وله العلا وأثيث كل مؤثل

وغير هذه من مطالع لبيد الاسلامية التى تدل على

عمق ايمـــانه ، وعلى تشرب قلبه وفنــه مبـــادىء الدين الاسلامى .

وأما الحـــكمة فلها فى مطالع قصـــائده ومقطوعاته الاسلامية نصيب لا يخفى ، وهى غالبا ما تحث الفكر على التدبر فى الحياة والموت .

كما فى قوله :

ألا تســـألان المرء ماذا يحـــاول ؟
أنحب فيقضى أم ضلال وباطل ؟ (١)

وقوله :

تمنى ابنتـــاى أن يعيش أبوهمـــا
وهل أنا الا من ربيعة أو مضر ؟

وقوله :

بلينـــا وما تبلى النجوم الطوالـــع
وتبقى الجبـــال بعدنا والمصـــانع

وقوله :

مـــا ان تعـــرى المنـــون من أحـــد
لا والـــــد مشـــــفق ولا ولـــــد

وأما الرثاء فقد كثر فى مطالع قصائده الاســـلامية ، اذ بكى أخاه أربد وحده فى احدى عشرة مرثية بين قصيدة ومقطوعـــة وأرجوزة ، الى جانب رثاء قومه وعشـــيرته ،

(١) الديوان ٧٢ ، ٢٩٧ ، ٣٨ ، ٤١ ، ١٧٤ ، ٣٤ ، ٢٧١ ، ٢٥٤ ، ٢١٣ ، ١٦٨ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٧٣ ، ١ ، ٤٦ ، ٢٤ ، ٣٧ ، ١٨٠ ، ٤٧ .

وكثيرا ما يمتزج هذا الرثاء بنزعة متشـائمة ، يتذمر من الحياة وتطـاول الأيام ، ويتحسر على ذهاب الطيبين ، من هذه المطالع قوله :

لــن تفنيــا خيــرات أر
بـــد فابكيا حتى يعـودا

وقوله :

يامى قومى فى المآتم واندبى
فتى كان ممن يبتنى المجد أروعا

أو قوله فى رثاء قومه :

أصبحت أمشى بعد سلمى بن مالك
وبعـد أبـى قيس وعـروة كالأجب

وأما المرأة : فلا يذكرها الا ليلومها لا ليتغزل فيها ، وقد قلت فى مطالع قصـائده الاسـلامية الى حد أنه لم يتعرض لذكرها الا فى هذا المطلع :

أعـاذل قـومى فاعـذلى الآن أو ذرى
فلسـت وأن اقصـرت عنى بمقصر

من هنا يتضـح أن لبيدا قد هجر فى ظل الاسـلام المطالع الجـاهلية والمقدمات التقليدية الطللية والغزلية ، الى مطالع اسلامية تحمل روح الدين وقيمه ، أو مطالـع متأثرة بالروح الفنية الجديدة ، التى تعمـد الى الغرض المراد مباشرة دون اللجوء الى مقدمات موروثة عتيقـة . وهذه المطالع ـ بلاريب ـ أثر من آثار الاسلام فى شـعر لبيد المخضرم .

كذلك يظهر أثر الاسلام فى البناء الفنى فى شعر لبيد فى :

٢ - التذييل :

يتردد فى تضاعيف شعر لبيد الاسلامى تذييل لبعض الأبيات ، مما يضفى على البيت حسنا وجمالا ورونقا وبهاء ، والجديد فى التذييل الذى نعده من أجله ظاهرة اسلامية قيمة هذا التذييل المعنوية ، فهو غالبا ما يحمل حكمة صائبة ، تستقى ماءها من ينابيع الدين ، أو من تجارب السنين ، فتقع فى النفس موقع الدواء على الداء، وقد كثر هذا اللون من التذييل فى شعره الاسلامى ، على نحو قوله :

قوم لهم عرفت معد فضلها
والحق يعرفه ذوو الألباب

وقوله :

أكرمت عرضى أن ينال بنجوة
ان البرىء من الهنات سعيد

وقوله :
واكذب النفس اذا حدثتها
ان صدق النفس يزرى بالأمل

وقوله :
فاما ترينى اليوم عندك سالما
فلست بأحيا من كلاب وجعفر

وهذا التذييل الرائع الصائب فى شعر لبيد الاسلامى كثير ، وهو أثر من آثار الاسلام الذى ظهر أيضا فى بناء شعر لبيد الفنى فى :

٣ - غلبة المقطوعات والقصائد القصار :

ان شعر لبيد الاسلامى الذى استطعنا ان نستدل عليه بتاريخه ومناسبته وذيوع الروح الاسلامية فيه شعر - لاشك - كثير ، يمثل على الاقل ثلث شعره جميعه ، ويلفت النظر فيه غلبة المقطوعات والقصائد القصار عليه، بينما تتضاءل فيه القصائد الطوال ، اذ يرى المنقب فى فى هذا الشعر ، ان المقطوعة - التى لا تتعدى العشرة الأبيات - تحتل مساحة كبرى فى رقعته ، ففيه عشر مقطوعات ، وهى على الترتيب فى الديوان : الأولى ، والسادسة ، والسابعة ، والتاسعة عشرة ، والحادية والعشرون ، والثانية والعشرون ، والثالثة والعشرون ، والخامسة والعشرون ، والثامنة والعشرون ، والحادية والأربعون .

على ان عددا من هذه المقطوعات العشر يتراوح بين الأبيات الأربعة والثلاثة ، كالمقطوعة الحادية والعشرين ، والثانية والعشرين ، والثالثة والعشرين ، ومنهن هذه المقطوعة فى رثاء أخيه أربد :

يذكرنى بأربد كل خصم
ألد تخال خطته ضرارا

اذا اقتصدوا فمقتصد أريب
وان جاروا سواء الحق جارا

ويهدى القوم مضطلعا اذا ما
رئيس القوم بالموماة حارا

بينما تمثل القصائد القصار التى تتراوح بين الأربعة عشر بيتا والثلاثة والعشرين ستا ، وهى ، الخامسة ،

والسابعة ، والثامنة عشرة ، والرابعة والعشرون ، والتاسعة والثلاثون ، والتاسعة والأربعون .

بيد أن للبيد أربع قصائد أخرى ، ثنتان متوسطتان ، فاحداهما تبلغ أبياتها واحدا وثلاثين ، وهى القصيدة السابعة والعشرون ، وثانيتهما تبلغ أبياتها ثمانية وثلاثين بيتا ، وهى القصيدة الثامنة ، وثنتان طويلتان تبلغ احداهما اثنين وخمسين بيتا ، وهى القصيدة السادسة والثلاثون ، وتبلغ ثانيتهما خمسة وثمانين بيتا ، وهى القصيدة السادسة والعشرون .

بينما الأراجيز فى شعر لبيد الاسلامى لا تتعدى الأربع وهى : العشرون ، والثالثة والخمسون ، والثامنة والحادية والستون .

وجميع هذه الأراجيز فى الرثاء ، الا الأرجوزة الثامنة والخمسون - أى الثالثة من هذه المجموعة - فانها فى سلمان بن ربيعة الباهلى ، الذى كان يلى الخيل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقاضيه على الكوفة ، وما وهبه الله من نعمة البصر بالخيل ، وما حباه من فضل ، ومنها .

من يبسط الله عليه اصبعا
بالخير والشر بأى أولعا

يملأ له منه ذنوبا مترعا
وقد أباد ارما وتبعا

الى أن يقول :

أنت جعلت الباهلى مقنعا
فينا فامسى ماجدا ممنعا

ولبيد فى أراجيزه هـذه مقتصد ، حيث جانب فيها التطويل ، فهى أشبه ما تكون بالمقطوعات .

ومن ثم يلوح لنا ذيوع المقطوعة والقصيدة القصيرة فى شعر لبيد الذى قاله فى عهد اسلامه ، وهنا تطل برأسها علامة استفهام ؟ ترى ماسر ذيوع هذه الظاهرة الفنية فى شعر الرجل فى هذا العهد ؟ هل يا ترى مردها الى طعنه فى السن وثقل الأيام عليه ، وأن ماء قريحته الفياض قد غاض الا أقله ، فما عادت تسعفه الا بهذا القدر من الشعر عندما تهتاج عاطفته ، وتتأجج مشاعره ، وتعربد فى داخله انفعالاته ؟

أو ان مرد هذه الظاهرة الى تأثر لبيد بما ذاع فى دولة الشعر فى صدر الاسلام حيث ذاعت المقطوعات وتفوقعت المطولات ؟

والذى أراه - ويراه كل محقق مدقق - أن مرد هذه الظاهرة عند لبيد الى تأثره بالقالب الفنى الاسلامى ، بدليل هجره للمقدمات التقليدية الجاهلية ، وتذييله الكثير من أبياته بالحكمة الصائبة ، وبدليل قصائده الاسلامية الطويلة اللاتى بلغت احداها خمسة وثمانين بيتا ، فلو قلنا بنضوب معينه فقط - وحاشا القول - لاعترض بهذه القصائد الطوال ، ولقد أفلح من كان عقل ، ولا ضير أن نضم الى هذا طعنه فى السن .

ولاشك أن هذه الخاصية فى شعر لبيد الاسلامى تقودنا الى خاصية أخرى فى البناء الفنى هى :

٤ - الوحدة الموضوعية :

وهى التى تعنى تلاحم الأفكار فى الموضوع الواحد ، وترتيبها ، بحيث تسلم كل فكرة الى أختها ، ولا تنهض

الا بهـــا ، وتلاؤم الأبيـات وتواؤمهـا ، بحيث لا يمكنك الاستغناء عن بيت من أبيات القصــيدة ، ولا يتســنى لك تبديل مواضعها بالتقديم أو التأخير دون الاخلال بالمعنى ، هذا فى الموضوع الواحد ، وما أكثر هذا التلاحم الموضوعى فى شعر لبيد الاسلامى لغلبة المقطوعات والقصائد القصــار عليه ، فهى ولاريب معدودة الأبيات موحــدة الموضــوع ، كذلك تتمثل هذه الوحدة الموضــوعية فى القصــائد التى تنهض بأكثر من موضـــوع فى ترتيب الموضوعات ، بحيث تأتى الفكرة مكملة لفكرة أخرى ، دون تفكك أو انقطــاع ، ولم تعى قصائد لبيد الاســلامية بهذه الخاصــية ، اذ هى مطردة فيهـــا ، فلبيد حين يرثى قومه يتــأمل فى الحياة ومصير الماضين من ذوى الشأن والجاه فيستخلص الحــكم والأمثال ويســـوق المواعظ ، مما يجعلنا نشــعر بصــدق مشاعره ، ولاشك أن الصلة وثيقة بين هذين الموضــوعين ، فكل جزء منهما يذكر بجزء بعده ويســـتجيب لجزء قبله ، فاذا المعانى موصـــولة يأخذ بعضـــها برقاب بعض ، لأن الأفكار متداعية متلاحمة ، والشاعر المبدع هو الذى يحسن وصل فكرة بأخرى ، بحيث تبدو امتدادا لها ، وتتجلى لنا هذه الظاهرة فى شعر لبيد الاســـلامى حتى فى طويلتيه القصيدة السادسة والعشرين التى مطلعها :

ان تقوى ربنا خير نفـــل
وباذن اللــه ريثى وعجــل

على ما فيها من فخر بنفسه وقومه ، دعته اليه هــذه الرحلة الشاقة المضنية ، والقصيدة السادسة والثلاثين التى مطلعها :

الا تسألان المرء ماذا يحـــاول
أنحب فيقضى أم ضلال وباطل ؟!

فالصلة وثيقة بين موضوعاته فى كلتا القصـــيدتين ، وعبثا يقع القارىء على بتر أو اضطراب أو تفكك .

ولعل لبيدا من أجل الحفـــاظ على الوحدة الموضوعية فى شعره ، والرغبة فى تماســـكه وتعاضده كان يعمد الى الاستدارة ، بحيث لايتم المعنى العـام للقطعة الا فى البيت الأخير ، كأن يذكر الشرط وفعله فى بيت ، ويأتى بجوابـه فى بيت آخر على نحو قوله :

فقولا لـه ان كان يقســم أمــره
ألما يعظك الدهـــر أمـك هـابل

فتعلم أن لا أنت مـــدرك ما مضـى
ولا أنت مما تحذر النفس وائل (١)

وان أثر الاسلام فى بروز هذه الخاصية فى البناء الفنى فى شعر لبيد واضح ، اذ لم تعد القصيدة عنده ـ كما كانت عند الجاهليين ـ مجرد موضوعات ترص وتصف ، تأخـــذ فى ترتيبها شكلا تقليديا متوارثا ، ولم تعد الوحدة عنـده فى الاســـــلام حكرا على البيت المفرد ـ كما كانت ـ فقد أضحت وحدة موضوع مهما طالت القصيدة .

وكأن لبيدا بذلك البعد عن هذه التقليدية فى المقـدمة الطللية ، وترتيب الموضـــوعات وتعددها ثم نمـــو عــــدد أبياتها ، وتحوله الى هـــذه المطالع الاســـلامية الفياضـــة بالتســـبيح والحمد والتقوى ، وهـــذا التذييل الرائع الذى يبقى أثر ما يحمــــل من موعظـــة وعبرة فى النفس ، والى صيرورة القصـــيدة عنده فى ظلال الاســـلام الى مقطوعة معدودة الأبيات موحدة الموضوع ، كأنه بذلك يخط الطريق لشعراء الاسلام ، فى الوقت الذى لم يهبط فيه المستوى الفنى لهذا الشعر ، ولا عجب !! فان صدق مشاعر الرجل الدينيـة هو الذى ساعده على أن يحتفظ بمستوى فنه الجـاهلى فى شعره الإسلامى .

* * *

---

(١) الديوان ص ٢٥٥ .

الخـــاتمة

لبيد بين التأثر والتأثير

على الرغم من أن النابغة الذبيانى قد شهد للبيد بأنه أشعر قيس ، أو أشعر هوازن ، أو أشـــعر العرب (١) وان الفرزدق سمع بيتا له فسجد (٢) فقد كان لبيد يقـدم أمرأ القيس وطرفة بن العبد على نفسه ، ويضع نفسه فى المرتبة الثالثة بعدهما ، ويستدل على تقدمه هو فى الشعر بلاميته، حيث سئل لبيد من أشعر العرب ؟ فقال : الملك الضليل ذو القروح (امرؤ القيس) والغلام المقتول (طرفة) وصـاحب المحجن (٣) (يعنى نفسه) حيث يقول :

ان تقوى ربنـــا خيــر نفـل
وباذن الله ريثى وعجـل (٤)

ولعل لهذا عينه سلكه ابن سلام فى الطبقة الثالثة مـع قيس بن عبد الله (نابغة بنى جعـدة) وأبى ذؤيب الهذلى والشماخ بن ضرار (٥) ٠

بيد أن الذين يمعنون فى شعر لبيد يجدونه مباينا فى كثير من مناحيه لشعر الرجلين ، فهو « أكثر تنوعا وأشـد

---

(١) الأغانى ١٤/٩٧ ٠

(٢) المرجع السابق ١٤/٩٥ ٠

(٣) المحجن : جاء فى لسان العرب مادة (حجن) ص ٧٩١ ط دار المعارف : والمحجن والمحجنة : العصا المعوجة ، وفى المصباح المنير مادة (حجن) ص ١٢٣ ط الدار : المحجن وزان مقود : خشـبة فى طرفها اعوجاج مثل الصولجان ، وقال ابن دريد : كل عـود معطوف الرأس فهو محجن ٠ والجمع (المحاجن والحجون) ٠

(٤) الأغانى ١٤/٩٥ ، والشعر والشعراء ١/١٠٥ ٠

(٥) طبقات الشعراء ص ٤٢ ٠

ايحاء وأعمق تجربة من أمرىء القيس ، وأبعد جرأة من الشعراء ، أو تأثره بهم ، وانما تدل على القدر المشترك القيس فى نواحى أخر ، منها : البكاء على الديار ، اذ من المعروف أن امرأ القيس قد « سبق العرب الى أشياء ابتدعها ، استحسنتها العرب ، واتبعته فيها الشعراء ، منها استيقاف صحبه ، والبكاء فى الديار ... الخ » (٢) .

فلبيد لم يكن وحيد عصره فى تأثره بامرىء القيس فى هذا الجانب . من ذلك قول لبيد فى لاميته التى مطلعها :

ألم تلمم على الدمن الخوالى
لسلمى بالمذانب فالقفال ؟

تحمل أهلها وأجد فيها
نعاج الصيف أخبية الظلال

وقفت بهن حتى قال صحبى
جزعت وليس ذلك بالنوال

كأن دموعه غربا سناة
يحيلون السجال على السجال (٣)

ومنها : ذكره البرق والمطر على طريقة امرىء القيس ، كما فى قوله :

أصاح ترى بريقا هب وهنا
كمصباح الشعيلة فى الذبال

---

(١) مقدمة الديوان ص ٢٧ .
(٢) طبقات الشعراء ص ٢٦ .
(٣) الديوان ص ٧٢ وما بعدها .

ارقت له وانجـــد بعد هـــدء
وأصحابى على شـــعب الرحال

يضىء ربابه فى المزن حبشـــا
قيـــاما بالحـــراب وبالألال

ومنها الى جانب هذا بعض الصلات التعبيرية بامرىء القيس ٠

وأما طرفة فان تاثر لبيد به يكاد يكون باهتا ، ولا يبدو الا فى المعانى المشتركة ، كما فى قول طرفة :

يشق حباب المـــاء حيزومها بهـــا
كمـــا قسم الترب المفائل باليـــد

وفى قول لبيد :

تشـــق خمـــائل الدهنا يداه
كما قسم المقـــامر بالفيال

ثم ان للبيد تعبيرات كثيرة تتردد فى أشعار الجاهليين، غير أن هذه الظاهرة لا تدل على أخذه ممن سبقه أو عاصره من الشعراء ، أو تأثره بهم ، وانما تدل على القدر المشترك من التعبيرات الشائعة وقتئذ فى عالم الشـــعر ، وقد يؤكد على هذه الحقيقة التزام الشـــعراء بالنمط الفنى فى بنـــاء قصائدهم ، والذين ســـولت لهم أنفسهم الخروج على نهج الشعر الجاهلى عد ذلك الخروج منهم شذوذا ٠

ولا يفوتنى أن أنوه الى حقيقة هامة ، هى : أن لبيـــدا فى شعره الاســـلامى قد تأثر أيمـــا تأثر بالقرآن الـــكريم والحديث الشريف ٠

أما الشق الثانى فى هذه القضية والمتمثل فى أثر لبيد فى غيره من الشعراء ، فقد كفانا ابن قتيبة مئونته ، حين عرض لما يستجاد من أقوال لبيد ، وتطرق منهـا الى بعض المعانى التى سـبق اليها لبيد فأخذها عنه الشـعراء ، قال : (١) .

« ومما سبق اليه فأخذ منه قوله :

كعقـر الهاجـرى اذا بنـاه
باشـباه حـذين على مثـال

أخذه الطرماح بن حكيم فقال :

حـرجا كمجـدل هاجـرى لـزه
بذوات طبـخ أطيمـة لا تخمـد

قـدرت على مثـل فهن قوائـم
شـتى يلائم بينهن القرمد (٢)

ومن ذلك قوله وذكر نوقا :

لها حجل قـد قرعت من رءوسـه
لها فوقها مما تحلب واشل (٣)

---

(١) الشعر والشعراء ٢٨/١ وما بعدها .

(٢) لبيد يصف ناقته . والعقر : القصر الذى يكون معتمدا لاهـل القرية ، والهاجرى : البناء . اما الحرج فى قول الطرماح فهو : الجسم الطويل من الابل ، والمجدل : القصر المشرف لوثاقة بنـائه ، ولزه : شده والصقه . والقرمد : خزف يطبخ . او هو كل ماطلى به للزينـة كالجص والزعفران .

(٣) يصف لبيد الابل بكثرة اللبن ، وان رءوس حجلها (صـغار اولادها) صارت قرعا اى صلعا ، لكثرة ما يسـيل عليها من لبنهـا ، وتتحلب امهاتها عليها .

أخذه النابغة الجعدى فقال :

لها حجل قرع الرءوس تحلبت
على هامة بالصيف حتى تمورا

ومما سبق اليه فأخذ منه قوله :

من المسبلين الريط لذ كأنما
تشرب ضاحى جلده لون مذهب

أخذه الأخطل فقال :

لذ تقبله النعيم كأنما
مسحت ترائبة بماء مذهب (١)

وقوله يذكر قوما ماتوا :

وانا واخوانا لنا قد تتابعوا
لكا المغتدى والرائح المتهجر

أخذه المحدث (أبو نواس) فقال :
سبقونا الى الرحيـــل وانا لبا لأثر »

ثم يقول ابن قتيبة : ولبيـــد أول من شـــبه الأباريق بالبط ، فأخذ ذلك منه ، قال يذكر الخمر :

---

(١) من الراخين ازرهم ، ولازرهم فضـل على وجه الارض ، والريط : الملاءة الملفوفة . ولذ : من اللذة ، يقال : رجل لـــذ : ملتذ . وضاحى جـلده : ظاهره : كانما تشرب ماء مذهبا من نعمته ونضـارة لونه .
ومعنى تقبله النعيم - فى قول الأخطل - بدا عليه واستبان فيه .

تضمن بيضـا كالأوز ظروفهــا
اذا أتاقوا أعناقها والحواصلا (١)

وممن أخذوا هذا المعنى شبرمة الضبى اذ يقول :

كأن أباريق الشمول عشــية
أوز بأعلى الطف عوج الحناجر (٢)

وللبيد فى كل ما سبق فضل السبق والابتكار ، وروعة الايجاز قبالة اطناب الطرماح ، ودقة الاطلاق ازاء تقيــد الجعدى بالصيف ، وعظمته حين اشرب ظاهر الجلد المـاء المذهب ، بينما يمسح الأخطل الترائب بماء الذهب ، وقوة الايحاء اللفظى فى : تتابعوا والمتهجر ، الذى لا نلحظه فى قول أبى نواس .

ويلوح لى أن تأثر الشعراء بلبيد لم يقف عند حد هـذه المعانى ، فان الذى يتصفح ديوان شعره تتجلى أمام عينيه هذه الحقيقة ، ويدرك عن كثب أن حسان بن ثابت حينمـا قال :

أصون عرضى بمالى لا أدنسه
لا بارك الله بعد العرض فى المال

قد نظر الى قول لبيد :

أقى العرض بالمال التلاد واشترى
به الحمد ان الطالب الحمد مشترى

---

(١) اتاقوا : ملئوا الحواصل : جمع حوصلة ، وحوصلة الحوض : مستقر الماء فى اقصاه ، استعملها لمستقر الخمر فى الأبريق . فالخمرة توضع فى أباريق تشبه الأوز فى اشكالها .
(٢) انظر ديوان لبيد ص ٢٤٤ .

وأن الفرزدق ـ الذى كان معجبا بشـاعرنا ـ حين قال يتطاول على جرير :

ان الذى سمك السـماء بنى لنـا
بيتـا دعائمـه أعز وأطـول

وحين قال :

أولئـك آبائـى فجئنى بمثلهـم
اذا جمعتنا يـا جريـر المجـامع

قد نظر الى قول لبيد :

فبنى لنـا بيتـا رفيعـا سـمكه
فسـما اليـه كهلهـا وغلامهـا

وقوله :

أولئك اسـرتى فاجمـع اليهـم
فمـا فى شـعبتيك لهـم نديـد

ويلوح للناظر أيضا أن صـالح بن عبد القدوس عندما قال :

ما الناس الا عاملان : فعامل
قد مات من عطش وآخر يغرق

كان أمام ناظرى صالح قول لبيد :

وما الناس الا عاملان : فعامل
يتبر ما يبنى وآخر رافـع

وأن أبا ذؤيب الهذلى عندما قال :

امن المنون وريبهـا تتوجـــع
والدهر ليس بمعتب من يجزع ؟!!

كان ينظر الى قول لبيد :

فبرى عظامى بعد لحمى فقدهم
والدهر ان عاتبت ليس بمعتب

ولعل أبا فراس الحمدانى كان يرمق من طـــرف خفى قول لبيد :

فشـــوى ولـــم يوجـــع ولـــم
يوصـــب وكـــان هـــو الفقيـــدا

وذلك عندما قال الحمدانى فى أسره :

سيذكرنى قومى اذا جد جدهم
وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

لقد كان أثر لبيد واضحا فى غيره من الشـــعراء الذين ولوا وجوهم شطر ساحة شعره ، سواء منهم من كان عصرى لبيد ، أو من جاء بعده على طريق الشعر ، وأن تأثير لبيـــد بارز فى الشعر والشعراء . وفى غير الشـــعراء ممن كانوا يتمثلون بشعره فيما يعن لهم من مواقف وأحداث .

وبعد : فلعلى قد دمغت زيفا وقررت حقيقة وأشـــهدت غائبا ، ووصلت بشاعرنا المسلم الى مرافىء الصواب .

ولعل هذه الصـــحائف قد كشفت عن لبيد الشـــاعر المخضرم ، وشعره الذى قاله فى ظلال الاسلام ، وأنها قـــد

نقبت بعمق فى هذا الشعر ، فبلورت خصائصه ، وأبرزت أثر الاسلام فيه من جميع المناحى ٠

وهكذا تمضى الأجيال وتتعاقب ، ويبقى بين ظهرانيهم شعر لبيد ، وحسبه اليوم البقاء فى رداء الحقيقة ، وليرحم الله لبيدا الذى نزل من نفوس الناس منزلة رفيعة ، فأحبوه وأكرموه وأعجبوا بشعره ، فتمثلوا به وتناشدوه ، واستمدوا منه الحكم والأمثال والفصاحة والجمال ، ورأوا فيه مرآة للحياة البادية ، كما رأوا فيه مرآة صافية نقية للنفس المسلمة التقية ٠

* * *

فهرس المراجع

١ ـ الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى : د٠ محمد هاشم عطية ٠ ط الثالثة مطبعة الحلبى بمصر ١٩٣٦ م ٠

٢ ـ الاستيعاب فى معرفة الأصحاب : لابن عبد البر ، تحقيق : على محمد البجاوى ٠ مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ٠

٣ ـ أسد الغابة فى معرفة الصحابة : لابن الأثير ٠ ط : مصر ١٢٨٠ هـ ٠

٤ ـ الاسلام والشعر : د٠ يحيى الجبورى ٠ مكتبة النهضة بغداد ١٩٦٤ م ٠

٥ ـ الاصابة فى تمييز الصحابة : لابن حجر العسقلانى٠ تحقيق : على محمد البجاوى ٠ دار نهضة مصر للطبع والنشر ٠

٦ ـ اصلاح المنطق : لابن السكيت ٠ تحقيق : عبد السلام هارون وشاكر ٠ دار المعارف مصر ١٩٥٦ م ٠

٧ ـ الأغانى : لأبى الفرج الأصفهانى ٠ ط : الساسى ٠

٨ ـ أمالى المرتضى : للشريف المرتضى ٠ تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ٠ طبعة الحلبى ٠ ط الأولى ١٣٧٣ هـ ٠

٩ ـ أيام العرب فى الجاهلية ٠ لجاد المولى والبجاوى وأبى الفضل ابراهيم ٠ طبعة عيسى البابى الحلبى ٠

١٠ - البيان والتبيين : للجاحظ . تحقيق : عبد السلام هارون . ط . لجنة التاليف ١٣٧٦ هـ ١٩٤٨ م .

١١ - تاريخ الطبرى : لابن جرير الطبرى . طبعة : المطبعة الحسينية . ط الأولى .

١٢ - التطور والتجديد فى الشعر الأموى : د. شوقى ضيف . ط الرابعة . دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م .

١٣ - جمهرة أشعار العرب : لأبى زيد القرشى . طبعة بولاق ١٣٠٨ هـ .

١٤ - حديث الأربعاء : د. طه حسين . دار المعارف بمصر ١٩٢٥ م .

١٥ - حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة . الجزء الأول ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م .

١٦ - الحيوان : للجاحظ . تحقيق : عبد السلام هارون طبعة الحلبى ١٩٤٨ م .

١٧ - خزانة الأدب : للبغدادى . تحقيق عبد السلام هارون . دار الكاتب العربى للطباعة والنشر . القاهرة ١٣٨٩ هـ .

١٨ - السيرة النبوية : لابن هشام . دار التراث العربى للطباعة والنشر ١٩٧٩ م .

١٩ - شرح ديوان لبيد بن ربيعة . تحقيق وتقديم : د. احسان عباس الكويت ١٩٦٢ م .

٢٠ - شرح المعلقات السبع : للزوزنى ، طبعة بيروت ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨ م .

٢١ - الشعر الجاهلى . مراحلــة واتجاهاته الفنية . د. سيد حنفى حسنين . الهيئة المصرية العــامة للتــأليف والنشر ١٩٧١ م .

٢٢ - الشعر فى الاسلام : د. أحمد فؤاد الغول . مطابع صوت الخليج . ط الثانية ١٩٧٩ م .

٢٣ - شعر المخضرمين وأثر الاســلام فيه : د. يحيى الجبورى . مكتبة النهضة بغداد ١٩٦٤ م .

٢٤ - الشعر والشــعراء : لابن قتيبة . طبعــة ليدن ١٩٠٤ م ، وطبعة دار المعارف بمصر بتحقيق : أحمد شاكر ١٩٦٦ م .

٢٥ - شعراء النصرانية : لويس شـيخو اليســوعى . طبعة بيروت ١٩٢٦ م .

٢٦ - طبقات الشعراء الجاهليين والإســلاميين : لابن سلام الجمحى . طبعة صبيح مصر .

٢٧ - الطبقات الكبرى : لابن سعد الزهرى . طبعــة ليدن ١٣٢٢ هـ .

٢٨ - العصر الاسلامى : د. شوقى ضيف . دار المعارف بمصر . ط الخامسة ١٩٦٣ م .

٢٩ - العصر الجاهلى : د. شوقى ضيف . دار المعارف بمصر ١٩٦٠ م .

٣٠ - العقــد الفريد : لابن عبــد ربه . تحقيق : أحمد أمين ورفاقه . طبعة لجنة التأليف ١٣٦٥ هـ ١٩٤٦ م .

٣١ - العمدة فى محاسن الشعر وآدابه : لابن رشيق . تحقيق : محيى الدين عبد الحميد . ط الثانية مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٥ م .

٣٢ - عيون الأخبار : لابن قتية . طبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٣ هـ ١٩٢٥ م .

٣٣ - فى الأدب الاسلامى والأموى : د. سليمان ربيع . ط الثالثة . مطبعة السعادة بمصر ١٩٦٦ م .

٣٤ - الكامل فى اللغة والأدب : للمبرد . نشر زكى مبارك وأحمد شاكر . طبعة الحلبى ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م .

٣٥ - كتاب المعمرين من العرب : لابى حاتم السجستانى طبعة صبيح .

٣٦ - لبيد بن ربيعة العامرى : د. يحيى الجبورى . نشر مكتبة الاندلس بغداد . طبعة بيروت ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م .

٣٧ - لسان العرب : لابن منظور . طبعة بولاق ١٣٠٠هـ و ط دار المعارف .

٣٨ - مجالس ثعلب : لأبى العباس ثعلب . تحقيق : عبد السلام هارون . طبعة دار المعارف بمصر ١٩٤٨ م .

٣٩ - مجمع الأمثال : للميدانى . مطبعة السعادة . ط الثانية ١٣٧٩ هـ ١٩٥٩ م .

٤٠ - محاضرات الأدباء : للراغب الأصبهانى . طبعة ١٣٢٦ هـ .

٤١ - المرأة فى الشعر الجاهلى : د٠ أحمد الحوفى ٠ طبعة نهضة مصر ١٩٥٤ م ٠

٤٢ - معجم الشعراء : للمرزبانى ٠ طبعة القدسى ١٣٥٤ هـ ٠

٤٣ - المعمرون والوصايا : للسجستانى ٠ تحقيق : عبد المنعم عامر ٠ طبعة الحلبى ١٩٦١ م ٠

٤٤ - المفضليات : للمفضل الضبى ٠ شرح ابن الانبارى طبعة ليدن ١٩٢٠ م ٠

٤٥ - الموشح : للمرزبانى ٠ طبعة السلفية القاهرة ١٣٤٣ هـ ٠

٤٦ - موقف الاسلام من الشعر : د٠ صلاح الدين عبد التواب ٠ مطبعة السعادة ٠ ط الأولى ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م ٠

٤٧ - نظرات فى الأدب فى عصر صدر الاسلام : د٠ محمود فرج العقدة ٠ دار الطباعة المحمدية ٠ ط الثانية ١٩٦٥ م ٠

فهرس البحث

رقم الايداع بدار الكتب ٣٨٦١ لسنة ١٩٨٤